نذير العاصفة

مكسيم جوركي

- Author : Maxim Gorky
- Title: The Song of the Stormy Petrel
- Translated by: Saad Tawfik
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier

- المؤلف: مكسيم جوركي
- العنوان: نذير العاصفة
- ترجمة: سعد توفيق
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ٥٣١١
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 095 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

مكسيم جوركي

نذيــر العاصفة

مجموعة قصصية

ترجمة

سعد توفيق

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

جوركي، مكسيم.

مكسيم جوركي : نذير العاصفة – ترجمة: سعد توفيق

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2018

192 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 5311 / 2017

الترقيم الدولي 3 – 095 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء

2 – جوركي، مكسيم

إهـــداء

صدق ذلك الرجل وحقت كلمته أيها العزيز:

«إن العامل الذي يعمل من مطلع الشمس إلى مغربها، ولا يطلب إلا قوت يومه وقوت أطفاله ليقوم في كل يوم بعمل من أعمال البطولة،

فإليك يا والدي: أيها العامل، أيها البطل، أيها الجندي المجهول... أهدي هذا الكتاب. وما هو إلا ثمرة جهادك وكفاحك الشاق المرير.

ابنك

سـعـد

مقدمة

جوركي: حياته وفنه

ولد ألكسي مكسيموفيتش بشكوف في ٢٨ مارس عام ١٨٦٨ في مدينة ينجني نوفجورود من عائلة كادحة تدعى عائلة كاشرين. وكان ثمرة زواج ابنة كاشرين (فارفارا) من نجار من بلدة برم يدعى مكسيم بشكوف، ومات والده وهو لم يبلغ الخامسة، فانتقل إلى كنف جده وجدته لأمه، وكان جده بحارًا سابقًا على الفولجا استطاع بدأبه ونشاطه أن يرتفع إلى مصاف البورجوازية الصغيرة. وتزوجت أمه غير أبيه رجلًا أساء معاملتها حتى ماتت بالسل، ثم لحقها زوجها مصدورًا أيضًا. وبقي الطفل الصغير في رعاية جده وجدته. كان جده أنانيًّا قاسيًا غليظ الطباع، يحمل عداء للناس أجمعين، ويحاول الاستعانة بالله عليهم لتدمير حياتهم وإزالتهم من طريقه. أما جدته فكانت على العكس منه تمامًا، رحيمة شفوقة تحب

الناس وتصلي لله كي يهبهم العون والخير، حتى خُيِّل للحفيد أن هناك إلهين، واحدًا لجده، جبارًا قاسيًا منتقمًا، وآخر لجدته شفيقًا رحيمًا غفورًا. وكان جده مشغولًا بمشاكله وثروته، لا يدخل على الجدة وحفيدها إلا ليضربهما ويؤذيهما باليد واللسان. أما الجدة، فقد شغلت بحفيدها وملأ عليها دنياها، فتعهدته بالرعاية ولقنته الفضائل المقدسة وحكت له أساطير الأولين والمتأخرين، وأنشدته ملاحم القديسين والقديسات وروت له مختلف القصص والسير، فألهبت وجدانه وأثارت مخيلته وغذّت مشاعره وأحاسيسه. كان جده وجدته بالنسبة له قطبا الوجود: البغضاء والمحبة، الخير والشر. وفي التاسعة أرسله جده إلى المدرسة، فكرهها من اليوم الأول، ووجده المدرس تلميذًا غبيًّا شقيًّا لا يحسن فهم شيء مما يلقى عليه، فتعهده بالضرب والإهانة. ولما كان اسمه يبتدئ بأول أحرف الهجاء، فقد أجلسوه في الصف الأول، فأصبح في متناول مدرسه الذي كان لا يفتر عن ضربه إظهارًا لقوته وإرهابًا لبقية الزملاء.

ولكن حدث أن زار المدرسة كبير المطارنة، وتعرف بالصبي الذي أنشده القصائد الطوال، وقص عليه سير القديسين والأنبياء، وما حفظه من الإنجيل، فسر كبير المطارنة سرورًا شديدًا، وبارك الغلام بين دهشة المدرس وعجبه. وما

إن انصرف المطران حتى أقبل المدرس وشد ألكسي من أذنه قائلًا له إنه يحمل بركة المطران، فيجب أن يكون أهدأ من الهواء وأسلس من الماء. وكان هذا عسيرًا عليه فترك المدرسة ليجمع الخرق لأن جده طرد جدته بسبب إفلاسه وأصبح عليه أن يعول نفسه ويعولها. وسرته حياة التشرد، فلا مدرس يضربه ولا تلميذ يضمر له الكيد. ولكن جده ضاق به ذرعًا. فقال له اذهب «في معترك الحياة» فليست لدي حجرة تسعك...

وواجه الحياة صبيًّا في محل لبيع الأحذية، فجرب غرور الرؤساء وصاحب المحل، وخبث التجار ونفاقهم، وشقاء العمال وكدهم، ففارقه إلى المستشفى لإصابته بحروق في يديه. ومنها ذهب إلى بيته ليجد جده قد تحطم تمامًا وجدته صابرة مؤمنة، تقاوم الحياة في سماحة وإيمان. ولم يتركه جده حتى أرسله إلى قريبة له ليتعلم الرسم على يدي ابنها الرسام، ولكنهم لم يعلموه شيئًا، واصطنعوه خادمًا لهم. في هذا البيت شاهد الحياة البرجوازية الراكدة الخاملة التافهة المريحة. وتعهده مخدموه بالإيذاء حتى هرب منهم، ليعمل «غسَّال أطباق» في إحدى السفن، وهناك تعرف بطباخ يدعى سموري حبب إليه القراءة والاطلاع، ولم تطل به الحال على ظهر السفينة، فقد اتهموه بالسرقة ظلمًا وطردوه منها، فعاد إلى البيت ليجد جده أسوأ حالًا وجدته خيرًا مما كانت

إيمانًا وصبرًا وعزيمة. واحترف مهنة صيد الطيور، وكانت مهنة مريحة وتكفل له الحرية والاستقلال. ولكن جده ما زال به حتى أرسله إلى قريبته ثانية ليتعلم، فعاد إلى حياة الخدمة والضرب. وقد كثر ضربهم له هذه المرة؛ لأنه عاد إليهم يحمل هوى جديدًا، وهو حب التثقيف والاطلاع. وما زالوا يمعنون في إيذائهم له حتى تركهم، ليعود مرة ثانية إلى سفينة أخرى يعمل «غسَّال أطباق»، ولكنه تركها والتحق عاملًا في حانوت يبيع صور القديسين والقديسات والكتب المقدسة والأيقونات، وهناك ذاق الأمرين من سوء المعاملة وخداع صاحب الحانوت للمشترين وإيهامهم بما في صوره من قوة فعالة تشفي من كل داء عياء وتجلب الحظ الحسن والثراء. وأدت به الظروف إلى أن يقابل مخدومه مرة ثالثة، ليعمل معه مدة ثم يتركه راحلًا إلى قازان طلبًا للعلم...

رحل إلى قازان ظانًّا أن العلم يعطي لمن يرغبونه، ولكنه لم يجده كذلك، فالتحق بعمل عند خباز بأجر شهري قدره ثلاث روبلات. ولكنه لم يفتر أبدًا عن تغذية شوقه التوَّاق إلى القراءة والمعرفة. كان يقرأ لنفسه ويقرأ لرئيسه الخباز كونوفالوف- أعمال جوجول (تاراس بولبا) ورشتنيكوف (أبناء بودليبونيا) وكوستوماروف (ثورة سنكارزين) ودوستويفسكي (المساكين) وغيرها. وإلى إقامة جوركي في قازان يرجع

الفضل في تعرفه إلى الطلبة وارتياده «حلقات الدراسة» تلك التي انبثقت منها جماعة «الإنتلجنتسيا أو المثقفين» والتي بفضلها استطاع جوركي أن يتعلم ويدرك المطامح، والأفكار، والمثل العليا. وإنه لفي هذه الفترة أخذ يهتم جديًّا بمصير الإنسانية، ويحلم «بإعادة التنظيم الاجتماعي»، ويقرأ الكتب «الشيطانية الذكاء» على حد تعبيره ويعد نفسه ليكون «قوة اجتماعية فعالة»...

وكانت نتيجة هذا التقدم الخلقي، وهذا الضغط الفكري الحاد... محاولة للانتحار عام ١٨٨٨، لم تنجح لقدم المسدس، فأحدثت «ثقبًا صغيرًا في الرئة اليسرى». ويستطرد جوركي ساخرًا: «وبعد أن رقدت مريضًا المدة اللازمة... قمت لأتاجر في التفاح»...

ورحل جوركي من قازان مع فلاح ثوري يدعى «رومانس» من أنصار حركة تعرف بالشعبيين، يريد أن يهدي الفلاحين إلى الحياة الكريمة والحرية، ولكنهم لم يكونوا مستعدين لقبول تعاليمه هذه، فتعقبوه بالإيذاء، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أحرقوا منزله ومتجره وكادوا يقتلونه وجوركي معه، لولا لطف الله وستره. فودع صاحبه «رومانس» ورحل إلى شواطئ بحر قزوين ليعمل في شركة للصيد، وقابل بطلة قصته «مالفا».

ومن هناك رحل إلى تساريتزين، حيث اشتغل حارسًا

للقطارات، ومراقبًا للبضائع، ولكنه لم يلبث أن ملَّ هذه الحياة، فهجرها راجعًا إلى بلدته ينجيني نوفجورود ليؤدي الخدمة العسكرية. ولكن الطبيب وجده «سيئًا لا ينفع» فاشتغل بائع جعة مدة من الزمن، ثم تعرف بالمحامي لابين الذي اهتم أعظم الاهتمام بهذا المشرد الأديب، وكتب جوركي يقول: «كان تأثير لابين على ثقافتي عظيمًا: إنه رجل عالي الثقافة، كريم الأخلاق، أدين له أعظم الدين».

وفي ينجيني ارتاد جوركي حلقات الأنتلجنتسيا «مهتمًا بمشكلات عديدة» ولكنه سرعان ما شعر من جديد بالقلق في موضعه، فرحل في عام ١٨٩٩ «ليسيح في البلاد» فاخترق أراضي القوزاق على نهر الدون وروسيا الصغيرة، وبسارابيا، وأوكرانيا وأوديسا حيث اشتغل حمالًا، ومن هناك مشيًا على الأقدام حتى بلغ تفليس، مارًّا ببيركوب، وسنفيرويول وكيرش وكوبان، ومن تفليس رحل إلى بيسلان- بتروفسك، ومنها إلى الأجير، وفلاديقفقاس، وسوخوم- نوفوردسيك، وباكو، ثم رحل إلى تفليس مرة أخرى عام ١٨٩٢ وهناك قابل أحد المنفيين السياسيين «إسكندر كاليوجني» الذي تولى نشر قصته «ماكار كودرا» أولى قصص جوركي في صحيفة «القفقاز» وعمر جوركي أربعة وعشرون عامًا... فأية رحلة، وأية مغامرات، وأية حياة، وأي ثراء في الأحاسيس والرؤى

والمشاعر!.. ما علينا إلا أن نقرأ:

تشلكاش، وسالفا، وإيزرجيل العجوز، ورفيق السفر... إلخ؛ لندرك مدى أثر هذه الرحلات والمشاهدات في فنه. لست أدري السبب في أني عندما أقرأ جوركي يُخيل إليَّ أنها كتبت في الخارج، أمام الحياة لا على المكتب وفي الحُجَر الموصدة، وأنها كُتبت عند الفجر، في الساعات الأولى التي تسبق إشراق النهار!

ولم يستقر بجوركي الحال في تفليس، حتى رحل إلى شواطئ الفولجا ثم إلى بلدته، وشرع يحرر في جريدة «رسول الفولجا». وجمعته المصادفة السعيدة بكورلفكو، وأبدى الكاتب الروسي النبيل اهتمامًا بالأديب الناشئ. ويعترف جوركي بفضله قائلًا: «إني مدين له بدخولي ميدان الأدب الروسي العظيم، فقد عمل الكثير لأجلي، فقد أرشدني وعلمني» وفي حديث له إلى لفيف من الصحفيين يقول: «قولوا إن أول أستاذ لجوركي كان الطباخ سموري، والثاني: المحامي لابين، والثالث: إسكندر كاليوجني- وهو إنسان نبذه المجتمع- والرابع كورلنكو...» ولكن الحقيقة أن سموري، بعد جدته، أستاذه الثاني!!...

ولمع اسم جوركي سريعًا في سماء الأدب، وأصبح حديث الصحف وشغلها الشاغل، ووجد النقاد في فنه أدبًا

جديدًا يقوم على الوصف الصادق للحياة، وتبيان الخير الكامن في النفس الإنسانية وهو يعمل عمله تحت غشاء الشر الرقيق. وظن البعض أن «المشردين» نمط من الناس اخترعه جوركي، فيه رومانتية وخيال، ولكن الحقيقة أن هؤلاء «المشردين» طبقة حقيقية أوجدتها ظروف الحياة الروسية في سيرها الأليم نحو التقدم!

وذات يوم، ويعرف «بالأحد الأحمر» قاد جوركي الجماهير إلى سراي القيصر مطالبين بالدستور، فكان رد القيصر عليهم وابلًا من النيران حصدت الكثيرين منهم، وقبض على جوركي وأودع قلعة بطرسبرج. وكان جوركي وقتذاك عضوًا في الأكاديمية الروسية، فما لبث أن استقال كثيرون من أعضائها احتجاجًا على القيصر وأعوانه، وثار الكُتَّاب في أوروبا على هذا التصرف المهين، فأفرج عنه وكان المرض قد اشتد عليه في السجن، فاضطر إلى الرحيل.

وفي لندن كان «تلاقي الأكفاء»، ومن وقتها انعقدت بينهما أواصر الصداقة. ثم عاد جوركي إلى موطنه، حيث شاهد نار الثورة تلتهم «أقذار المفسدين» فلم تتحمل أعصابه رؤية مناظرها الدامية، فطفق يبذل كل جهده ليخفف من حدتها.

وزاد الثقب الذي أحدثه المسدس في صدره اتساعًا، فرحل التماسًا للشمس، واستقر في سورنتو في خليج نابولي،

حيث عاش تسع سنوات مليئة بالعمل الخصيب. وفي عام ١٩٣٣ عاد إلى روسيا، عاجزًا عن كبح حنينه إلى موطنه، وظل به يكتب ويعلم ويشجع الأدباء الناشئين، ويؤسس دور النشر للشعب، وكان من حسنات الرجل الذي كره المدرسة من أول نظرة، أن ابتدع إدارة تربية الأطفال وتعليمهم في الهواء الطلق.

ومات جوركي في يونية عام ١٩٣٦.

***

ولقد وجدت حاجة جوركي الإبداعية «مادة خصبة» في هذه الحياة الغريبة الرائعة التي عاشها، حتى أنه لا يفوتنا أن نجد في كل عمل من أعماله الفنية «بعضًا» من هذه الحياة. وهذا حمل بعض النقاد على نعته بأنه ليس فنانًا؛ لأنه يقدم لنا دائمًا «قطعًا» من الحياة، وحمل آخرين على أن يضعوه في صف واحد مع كارليل، بدعوى أن كليهما «مؤرخ قصاص» وأنهم لا يجدون اختلافًا واضحًا بين طريقة جوركي في كتابة قصصه وطريقته في كتابة «سيرة حياته»، وحمل فريقًا ثالثًا على القول بأنه كاتب واقعي يصف أشخاصه كما هي في واقع الحياة بلا تكلف أو زيف، ولذا جاءت صوره وأشخاصه حية نابضة بالحياة.

والحقيقة أن جوركي لم يكن من هذا كله في شيء. كانت الحياة مادته، ولكنه لم يستخدمها بالشكل الفوتوغرافي، ولا

الواقعي الجامد كما يقولون، وإنما استخدمها «مادة» لدافعه الإبداعي، فأحداث الحياة تقع وتمر بالناس خالية من كل تصميم أو هدف، وحشية ساذجة، متناقضة، قليلة المدلول، مفتقرة لكل أسلوب. هذه الأحداث تحل بالفنان فتكون لديه فلسفة معينة ووجهة نظر، وتحل بغير الفنان فيمر بها مرورًا عابرًا أو غير عابر. وهذه الفلسفة أو وجهة النظر أو الأفكار التي تكونت لدى الفنان نتيجة احتكاكه بالحياة والأحياء، بحاجة دائمًا إلى التعبير، إلى التجسد في صورة ملموسة، فلا يمكن للفكرة أن تكبت أبدًا، ومن ثم تنتخب الفكرة، في لحظة الإلهام، ما كمن في لاشعور الفنان من نثائر الحياة، وتصبها في الوحدة الحية للعمل الإبداعي المتناسق. فالفن هو الحياة تتمثلها نفس الفنان ثم تخرجها نتاجًا جديدًا، ذا شكل ومضمون. ويشعر الفنان، أثناء إبداعه، بالنشوة والسُكر، وبالارتياح والغبطة بعد أن ينتهي من عمله الفني.

والذي نريد أن نقوله هو أن جوركي فنان مبدع بالمعنى التام لهذه الكلمة، فنحن نشعر حين نقرأ أعماله بأنها ذات هدف ومدلول، وأن وراء العمل الفني قوة مبدعة تسيطر عليه من أوله إلى آخره، تعرف كيف تبدأ وكيف تنتهي، وكيف تمزج الشخصيات بعضها ببعض وكيف تفرقها، ومتى تزيد درجة الحدة والتوقع، ومتى تثير اللهفة والانتظار، وبالاختصار

تعرف كيف تنتزع من قارئها «الدموع والبسمات» وتجعل العمل الفني محببًا مشوقًا.

* * *

ما فلسفة جوركي إذن؟ وما معتقداته؟ وماذا كان يريد أن يقوله للناس؟

«الإيمان بالإنسان».

في هاتين الكلمتين تتلخص كل فلسفة جوركي وعقيدته. كان يؤمن بالإنسان الذي رآه في كل لحظة من لحظات حياته عاملًا مجدًّا، يكدح طيلة يومه؛ ليجمل هذا الكون ويعمره، ويتناول التراب فيحيله حبًّا ونباتًا فيه غذاء وبهجة للناظرين. كان يؤمن بالعامل والفلاح ويرى أنهما سادة الحياة، ويد الله في الكون. ويؤمن بالعالم والمثقف ويرى أن المثقفين هم حجر الزاوية في كل صرح جديد. ويؤمن بمستقبل الإنسان ويرى أنه سيأتي بحب الناس بعضهم بعضًا ويصغي الإنسان لأخيه كما يصغي لأعذب النغمات. ويخطر الرجال أحرارًا على الأرض.

* * *

في سبيل هذه العقيدة السامية، كرَّس قلمه وحياته، وقاسى مرارة السجن والنفي والتشريد وعاش حياته محاربًا لقوى الشر والظلام التي تحاول سحق الإنسان بكل وسيلة. ويحلم

بفجر يوم جديد، يوم يتحرر الناس ويرفرف على الدنيا السلام.

وها نحن نقدم هذا الكتاب «نذير العاصفة» إلى قرّاء العربية آملين أن يقع منهم موقع الرضى، راجين من «الشرفاء» المحبين لهذا الكاتب العظيم أن يسدونا ويوجهوا خطانا في هذا السبيل الشاق الذي أخذناه على عاتقنا. فنحن نرحب بالنقد لأنه سبيل الهداية والتقويم وعمل المترجم الأدبي شاق عسير لأنه يجد نفسه مضطرًا إلى المحافظة على النص والتزام الأصل، وفي نفس الوقت مضطرًا إلى مراعاة موسيقية الكلمة وشحنتها الوجدانية ودلالتها في موضعها من الجملة، ومدى ما تحمله من قيم تعبيرية، فتصعب مهمته ويعسر عليه التوفيق بين المعنى والمبنى. ويزداد الأمر عسرًا إذا كان المترجم محبًّا لمن ينقل له، ولا يريد التفريط في كلمة من كلماته أو إفقادها شيئًا من موسيقاها اللفظية. وقد بذلنا قدر ما نستطيع من جهد، فلعلنا نكون قد وفقنا إلى ما ينبغي من قصد.

ونذير العاصفة ثورة على أوضاع الحياة الراكدة الخاملة، تلك الحياة المعلقة، حيث تركن النفوس إلى الراحة والسكون في ظل طمأنينة تافهة وضيعة، وتضعف القيم الأخلاقية وتنهار، ولا يعد الإنسان يهمه من الدنيا شيء سوى ملبسه ومأكله... إنها الحياة البرجوازية العفنة بفضائلها المرذولة، كما أنه دعوة إلى حياة جديدة كلها حيوية وبناء وتشييد...

وفي هذا الكتاب أيضًا يحمل الكاتب حملة قاسية على الأدب الانعزالي الجامد، ذلك الأدب الذي يقبل ويمضي دون أن يترك وراءه أثرًا في حياة الشعوب والمجتمعات. ويدعو الكاتب إلى أدب جديد، أدب ناهض خالق ترى فيه الإنسانية صورتها والسبيل الذي يؤدي بها صعدًا في سيرها الدائم نحو الأعالي!... وإلى الأمام!

سعد توفيق

* * *

نذير العاصفة

السحب تتجمع وتتكاثف فوق صفحة البحر العريضة القاتمة. ونذير العاصفة الثائر يحلق طائرًا كالبرق بين السحب المتكاثفة والأمواج الغاضبة. إنه يطير، وبجناحه يشق الأمواج، وبالجناح الآخر يمزق وجه السحب. إنه يصيح والسحب تصغي فرحة، إلى صيحات نذير العاصفة؛ لأن في دعائه الشجاعة، والحماس، والإيمان السامي بالنصر.

ولكن طيور البحر تصرخ، وتحاول الخلاص من أسر الأمواج. وطيور «الغطاس» التي لا تعرف أفراح الجهاد، تجأر مثلها بالصراخ. وطيور السنجاب الحمقاء تخفي أجسامها السمينة خلف الصخور.

ها هو ذا نذير العاصفة يحوم وحده الآن بين الأمواج شجاعًا حرًّا غاضبًا.

والأمواج تطغى وتثور، وتكاد تحجب سطح البحر.

الأمواج تغني، وترقص رقصها الوحشي، وتصعد هادرة نحو الرعد فيلتحمان في صراع رهيب، ويتفجر الرعد شذرًا.

الأمواج تثور، وتجأر غضبًا وتصارع العاصفة في عنفوان مخيف، فيلاقيها الإعصار ويحتويها بين أحضانه، ويرطمها بالصخور في ثورة ووحشية، وترتفع الصخور شامخة متألقة بحبات الزمرد واللؤلؤ. ونذير العاصفة يسري خفية، وقد علق بجناحيه الزبد، يضحك ويبكي: يضحك من العاصفة ويبكي فرحًا، فقد عرف أن الرعد ستنطفئ حممه، وأن الظلمات لن تحجب الشمس طويلًا.

ولكن العاصفة تشتد، والصاعقة تنقض، والأمواج تحترق لهبًا زرقاء، فوق هاوية المحيط. والمحيط يمسك بالبروق ويغيبها في أعماقه، فتندلع سهامها النارية كالثعابين تخترق كبد الأمواج، وهي تتلاشى رويدًا.

وصاح نذير العاصفة والمحيط في عنفوان الغضب:

- العاصفة! العاصفة!

فجاوبه نذير النصر:

- آه، لو تشتد العاصفة وتعنف.

* * *

أسطورة

في غابة الرعاة، كانت تسكن حورية
من عادتها أن تستحم في النهر كل صباح
ولكن ذات يوم، خانتها حكمتها
فسقطت بين شباك الصيادين
وخاف الصيادون من هذا الصيد
ولكن زميلهم، ماركو الصغير
أمسك الحورية الجميلة
وغطاها بالقبل الحارة الولهى
ولكن الحورية تلوت بين
ساعديه القويتين، كالغصن الرطيب
ونظرت إلى عيني ماركو
وهي تضحك رقة وحنانًا

دون أن تدري السبب

وظلت اليوم كله، تغمر ماركو بالقُبل

وتحنو عليه كأنه طفل صغير

ولكن ما إن أقبل الليل

حتى اختفت الجنية الطائشة اللعوب

فخيم الحزن على ماركو

وظل طوال الأيام والليالي

يهيم في غابات الرعاة على ضفاف الدانوب

لا يجف دمعه ولا يفتر سؤاله:

- أين حوريتي؟

فتجيبه الأمواج الساخرة:

- لسنا ندري

ولكنه كان يصيح بها:

- إنك تكذبين

أيتها الأمواج، فهي بين أحضانك

وألقى المحب الولهان بنفسه

بين أمواه الدانوب ليلحق بحوريته

وما زالت الحورية تستحم في الدانوب

كما كانت تستحم من قبل أمام ماركو

ولقد مات ماركو واختفى...

ولم يعد إلا أغنية

ترددها الشفاه

وأسطورة خالدة

تتناقلها الأجيال

ولكن أنتم، أنتم تعيشون حياتكم على هذه الأرض

كما تعيش الديدان العمياء

لا يروي أحد عنكم الأساطير

ولا يغني بذكراكم الأغاني

❊ ❊ ❊

الإنسان

في ساعات ضيق الروح، عندما تحيي الذكرى ظلال الماضي التي تغمر القلب بالبرودة، ويشع الفكر، مثل شمس الخريف الواهنة، على فوضى الحاضر المخيفة، ويرتد حسيرًا على نفسه، عاجزًا عن السمو نحو الأعالي، عن الاندفاع إلى الأمام.

في هذه الساعات القاسية أستحضر بقوة خيالي صورة الإنسان ذات الجلال!.. الإنسان الذي تشع من روحه آلاف الشموس ويسير في نورها المتألق، جميلًا، عظيمًا كالكون، إلى الأمام ونحو الأعالي!

وتلوح أمامي جبهته العالية، وعيناه الجسورتان العميقتان تنبعث منهما أشعة الفكر النافذة الفكر الذي به فهم الإنسان توافق الأكوان العجيب، وبقوته السامية خلق في ساعات الضعف الآلهة، وفي عصور القوة والشجاعة أزالها.

وضائعًا بين صحاري الكون، وحيدًا على هذه الأرض المسيرة بسرعة لا يدركها الفكر، ولا يعرف مكانها من الفضاء اللانهائي، تائقًا

إلى معرفة سر هذا الوجود... يسير في عزم وقوة، إلى الأمام ونحو الأعالي، في طريق الانتصار على كل أسرار الأرض والسماء.

يسير، راويًا بالدماء طريقه الشاق، وحيدًا فخورًا، صائغًا من هذا الدم الملتهب زهور شعر لا تموت، ومحولًا بالفن صرخات روحه المعذبة إلى موسيقى، وخالقًا من تجاربه أصناف العلوم. والحياة كالشمس تغمره بأشعتها السخية، وتهديه سواء السبيل، كالنجم المنير، في سيره نحو الأعالي! وإلى الأمام!

ومسلحًا بقوة الفكر وحدها، الشبيهة بالبرق حينًا، و بحد السيف حينًا آخر، يسير الإنسان الحر الفخور... إلى الأمام! أسمى من الحياة وحيدًا بين الألغاز، وحيدًا بين عديد الأخطاء... كلها تثقل قلبه الوثّاب، وتكل من الدماغ، وتخجله وتحثه على تدميرها.

إنه يسير! في صدره غرائز تجمح، وأنانية تجأر، كشحاذ معدم يستحث الصدقة، ورغبات معوجة، وطفيليات تلتف بقلبه، وتمتص دمه الحار، وتصرخ به كي يحققها... كل المعاني تريد أن تتملكه، وكلها ظامئ إلى السيطرة على روحه.

وكما تحيط الكواكب بالشمس، كذلك الإنسان تضيق عليه الخناق مخلوقات من صنع روحه الخالقة: فحبه ظامئ أبدًا، وأمامه يمشي الأمل المكدود، والكراهية المشبعة بالغضب تلف قيود الصبر حول ذراعيه والإيمان بعينيه المعتمتين، يتطلع إلى وجهه الثائر، ويدفعه نحو الجمود الهادئ.

وأسمال الفضائل الراكدة، وسموم التحيزات الناقعة، تسير خلف الفكر كارهة، عاجزة عن متابعة جناحه الطليق، كالغربان خلف النسر، وتدعي عليه الأسبقية، ونادرًا ما تمتزج بالفكر في لهيب قوي مندلع.

والموت الصامت الرهيب، زميل الإنسان الأبدي، يحاول جاهدًا تقبيل قلبه الملتهب حبًّا للحياة.

كل هذا يعرفه الإنسان، في عليائه الخالدة، ويعرف شيئًا آخر هو: الجنون...

الجنون مجنحًا قويًّا كالدوامة، يتبعه بنظرة كارهة، وبقوته يجنح الفكر محاولًا جذبه إلى رقصه الوحشي...

الفكر وحده صديق الإنسان، فليس غير لهيبه يضيء أمامه عقبات الطريق، وألغاز الحياة، وأسرار الطبيعة الغاربة، وفوضى قلبه المعتمة.

الفكر الحر الطليق، زميل الإنسان، يقتحم بعينه اليقظة النافذة كل مكان، هاتكًا الستر عن كل خفي يكشف أفاعيل الحب الخفية الملتوية ورغبته في امتلاك المحبوب، وإرادته في الحط من غيره ومن نفسه، «والحسية» الفاسقة التي تحاول ملازمته... وعجز الأمل البائس الذي يتبعه النفاق، أخوه المخضب الزائف... أكاذيب حية مستعدة دائمًا لتهوين كل شيء، وتزييفه بكلماتها الجميلة، ولكن الفكر يشع في القلب النابض بالصداقة حكمته الحازمة، ويكشف الفضول القاسي المغرور، وينير بقع الغيرة القانية التي تكمن فيها بذور الدسيسة... الفكر يرى قوة الكراهية السوداء ويعرف أنه إذا نزع عنها أغلاله،

فستدمر كل ما على الأرض، وتفني براعم العدالة.

والفكر يهتك زيف الإيمان الجامد، ويكشف الرغبة الشريرة في القدرة الكلية التي تسخر كل شيء لها، ويقلم مخالب التعصب الخفية، ويظهر عجز أجنحته البليدة، وعماء عينيه الخاويتين.

والفكر يدخل في صراع مع الموت، عدوه اللدود. الموت الذي جعل من الحيوان إنسانًا، وخلق الآلهة، والمذاهب الفلسفية، والعلوم.. مفاتيح أسرار العالم. الموت الذي لا يطيقه الفكر الحر الخالد. الموت: هذه هي القوة المفنية الوقحة الشريرة.

الموت عدو الفكر الأزلي، يجمع في حقيبته للإنسانية ما أنفقه الزمن.. ما بلي، ولم يعد فيه نفع، ولكنه يختطف أيضًا ما هو فتي وقوي.

الموت يتقدم الإنسان، فائحًا بالعفونة، ملتفًّا بنقاب الرعب الهادئ الغريب، غامضًا كطلسم لا يحل، أسود، بينما الفكر يدرسه متمعنًا، خالقًا، منيرًا كالشمس، مليئًا بالجرأة الجسور والشعور الفخور بالخلود.

وهكذا يسير الإنسان ثابت الخطى خلال ظلمات الحياة: إلى الأمام ونحو الأعالي! دائمًا أبدًا: إلى الأمام ونحو الأعالي.

* * *

ها هو ذا الإنسان متعب، يمشي موهنًا، وقلبه الخائف يتلمس سبل الإيمان، وينادي طالبًا هدهدات الحب الحنون.

والفراخ الثلاثة وليدة الضعف: الوضاعة، واليأس، والحزن... ثلاثة فراخ سوداء قبيحة الشكل... تتآمر بشرّ فوق روحه وتغني له ألحان اليأس:

«لست على هذه الأرض إلا دودة حقيرة، إنك لا شيء، شعورك محدود، وفكرك عاجز كليل، وفخارك وزهوك سخف، ستغني وتعود إلى التراب، مهما عملت، مهما حاولت».

فيرتجف قلبه الممزق على أنغام هذه الأغنية الكاذبة الشريرة، وتخترق رأسه أسنة الشكوك، وتشتعل في عينيه دموع الهوان...

ها هو ذا قد خمدت في قلبه جذوة الثورة، وخوف الموت يرفعه بقوة في سجن الإيمان، والحب الناعم يحتضنه بين ذراعيه، منشدًا في وعوده بالسعادة عجز الإنسان عن التحرر، ووطأة الغريزة القاسية...

ويتحالف الإنسان مع الكذب، وينشد له الأمل الخجول مسرات الراحة، وتغني له السعادة الخانعة أنشودة التكيف، وتهدهده بالكلمات الحلوة الناعمة فتغفو الروح وتلقي بالإنسان في مستنقع الكسل، الضيق الراكد...

وتحت إيحاء العواطف الكاذبة، تحشو رأسه وقلبه بالسم اللذيذ للكذب المستهتر الذي يعلم دون حياء أن الإنسان لا طريق له غير الذي يقود إلى وضاعة الاكتفاء بالذات.

ولكن الفكر فخورٌ سامٍ، مؤمنٌ بالإنسان... يدخل في صراع مرير

مع الكذب، وميدان المعركة قلب الإنسان.

ويلاحق الفكر الإنسان كأنه عدوه، وينغر في رأسه كأنه دودة، ويثقل على صدره كالجفاف، وينزع من قلبه البرودة، ويوجد فيه بالعذاب فضيلة الحياة العاقلة التي رغم نموها البطيء، إلا أنها واضحة ظاهرة خلال ظلام الأخطاء، كزهرة من نار، يلدها الفكر.

ولكن ما دام الإنسان مسممًا بداء الكذب الذي يقنعه بأن لا سعادة سامية على مطالب البطن. وأن لا أفراح تفوق الشبع، والراحة، وأوضاع الوجود المريحة... فإن الفكر، أسير العاطفة المنتصرة، يطوي أجنحته مكتئبًا، ويروح في النوم تاركًا الإنسان لسيطرة قلبه.

وأشبه بموجة من الطاعون، يزحف الشقاء العفن- وليد الملل الجبان- من كل جهة على الإنسان، ويكتنف بضباب ساخر قاتم رأسه وقلبه، وعينيه!

وينحدر الإنسان بنفسه، مشوهًا بالضعف، إلى حيوان دون زهو أو فكر...

ولكن إذا تفجرت الثورة في قلبه، أيقظت الفكر، ومن جديد يسير إلى الأمام، وحيدًا خلال أخطائه، وحيدًا بين إشعاعات شكوكه اللامعة، وحيدًا بين بقايا فضائله الراكدة!

وساميًا فخورًا حرًّا، مثبتًا نظره بالفضائل، يقول لشكوكه:

- أنتم تكذبون حين تقولون إني عاجز، وإن شعوري محدود! إن

شعوري يزداد! إني أعرف ذلك، وأراه، وأمسه... تزايد عذابي أعرف أنه يرهف من شعوري. فلو لم يكن شعوري ناميًا متزايدًا لظل عذابي محدودًا.

في كل خطوة تتزايد رغباتي، وأشعر بما لم أكن أشعر به من قبل، وأرى ما لم أكن أراه! إن شعوري الآن في داخلي أشبه ما يكون بإشعاع، ولكني سأكون فيما بعد الحريق في ظلمات الكون! إني مدعو لأضيء العالم كله، لأحل ظلام طلاسمه الغامضة، لأجد التوافق بيني وبين العالم، ولأوجد في نفسي التوافق والانسجام! وبعد أن أضيء كل فوضى الحياة المظلمة على هذه الأرض المعذبة وتكسوها التعاسة، والآلام، والأحزان والشرور، سألقي بكل هذا الوحل في قبر الماضي.

إني مدعو لأقلل من عدد الأخطاء التي تنحدر بالناس إلى ما يقرب من قطيع جريح بغيض من الحيوانات تنهش نفسها.

لقد خلقت مفكرًا كي أهدم وأزيل، وأدفع كل راكد، وضيق، وخاطئ، وشرير، وأهزم كل أعداء الفكر، والحرية، والجمال، واحترام الإنسان!

وكعدو لدود للرغبات الإنسانية الوضيعة، أريد أن يكون كل كائن إنساني إنسانًا! هذه الحياة.. كم هي راكدة ومخجلة!.. حيث الناس عبيد الحياة، والصراع على الخبز ينسيهم كل هبات الروح المقدسة!

ملعونة كل التحيزات والأخطاء والعادات التي قيدت أذهان الناس وكبلت حياتهم، وأشبه بنسج العنكبوت... سأدمرها!

سلاحي الفكر، وإيماني في حريته وخلوده وطيد، والنفاذ الخالد لقوته الخالقة، ينبوع قوتي الفياض!

الفكر بالنسبة لي هو المنارة الخالدة، والحكم الوحيد في ظلمات الحياة. إني أرى شعلته تندلع، ملقيه ساطع اللهيب على كل غوامض الأعماق، وأنا أسير في أشعته خالدًا، وأتبعه دائمًا إلى الأعالي! وإلى الأمام!

بالنسبة للفكر لا توجد قلاع لا تهدم، ولا محاريب لا توطأ! كل شيء من خلقه، فله الحق المقدس الذي لا ينقض، في أن يهدم كل ما يعوق حريته.

ولست أجهل أن التحيزات هي بقايا الفضائل القديمة، محترقة بلهيب الفكر نفسه الذي خلقها من قبل.

إني أرى كل معنى الحياة في مبدأ الخلق، الذي ينبعث منه بلا حدود!

ولست أطمع في شيء غير الفكر: فالقدرة مخزية، والغنى مؤلم تافه، والمجد تحيز أساسه اعتياد الناس تحقير أنفسهم.

وسيأتي اليوم الذي يتفجر فيَّ لهيب هائل وحيد خالق عالم.. فكري لخالد، وبهذا اللهيب سأحرق كل مظلم، وقاس، وشرير، في داخلي، وأغدو شبيهًا بالآلهة التي خلقها فكري!... حين تكون كل المعاني في الإنسان وللإنسان.

وها هو ذا مرة أخرى ساميًا حرًّا، رافعًا رأس الفخار، يسير وئيدًا، ولكن ثابت الخطى على ضباب التحيزات السابقة، وحيدًا في ضباب الأخطاء القاتم، وخلفه ينحسر غبار الماضي وأمامه ألوف الألغاز تنتظره مستسلمة.

إنها لا عدّ لها، كالنجوم في هاوية السماء. ولا نهاية لها في طريق الإنسان!

وهكذا يسير الإنسان ثائرًا... إلى الأمام! ونحو الأعالي! دائمًا أبدًا: إلى الأمام! ونحو الأعالي!

* * *

غاية الأدب

كان الوقت ليلًا عندما غادرت المنزل الذي قرأت فيه أول قصة مطبوعة ألفتها وسط عدد من أصدقائي المخلصين. وقد أغرقوني بالمديح، فمشيت الهوينى في الشارع المهجور يهزني الطرب، وأجرب لأول مرة في حياتي فرحًا غامرًا بالحياة.

كان ذلك في شهر فبراير، وكان الليل صافيًا رائقًا، والسماء خالية من السحب. تتشح بغلالة شفافة رصعت بالنجوم، وتنفث برودة منعشة نحو الأرض التي ازينت بالجليد النقي الطاهر. وأغصان الأشجار تنحني على العشب، وتلقي في طريقي ظلالًا غريبة، وكومات الجليد تلمع فرحة متألقة في ضوء القمر الأزرق الهادئ. والشارع غارق في السكون والجمود، ولم يكن يعكر هذا السكون الفريد في هذه الليلة الصافية التي لم أنسها طوال حياتي، إلا تكسر الجليد تحت قدمي.

سرت أحدث نفسي قائلًا:

- جميل أن يكون المرء قبلة الأنظار، في هذه الدنيا.

واندفع الخيال يرسم أمامي مستقبلي، دون ألوان زاهرة.

- أجل، لقد كتبت شيئًا قيّمًا.

فأتاني صوت من خلفي، يقول:

- بلا شك.

فارتجفت دهشة والتفت خلفي.

رأيت إنسانًا نحيلًا يرتدي الملابس السوداء يقترب مني، وشرع يسير بجواري، وهو ينظر إلى وجهي مباشرة، وعلى شفتيه ابتسامة مُرّة. كان كل ما فيه ينمّ عن المرارة والاضطراب. نظراته، وذقنه ولحيته، وقامته القصيرة النحيلة التي تربك النظر بنحولها الغريب. وكان يسير بجانبي خفيفًا دون ضوضاء، كأنه ينزلق على الجليد. لم أكن رأيته أثناء قراءتي، فكان طبيعيًّا أن أشعر بالدهشة من ظهوره الفجائي. ساءلت نفسي:

- من هو؟ ومن أين أتى؟

فسألته:

- هل أصغيت أنت أيضًا؟

- أجل، لقد أصبت تلك المتعة.

كان صوته أجش، وشفتاه رقيقتين. وبدت ابتسامته، التي لازمته، من خلال شاربه، تنذر بالسوء، فقد أحسست أنها تخفي خلفها أفكارًا

معينة فيها إيذاء وتأنيب. وساءني أن أتبين هذه الصفة في زميلي متأخرًا، الذي كان يبدو أمام عيني كشبح، تبدد أمام لألاء رضائي عن نفسي. سرت بجواره أترقب ما سيقوله لي، وأتمنى أن يزيد عدد الدقائق السارة التي عشتها هذا المساء. إن الإنسان مخلوق أجوف؛ لأن المصير سيضحك منه آخر الأمر.

سألني زميلي:

– أليس جميلًا أن يشعر المرء بأنه شيء نادر؟

فلم أجد في سؤاله جديدًا، فشعرت بالارتياح.

فضحك مني ساخرًا، وهو يفرك بعصبية يديه النحيلتي الأصابع.

– هيه، هيه، هيه.

فقلت بجفاء وقد آلمتني ضحكته:

– يبدو أنك إنسان سعيد؟

فأجابني موافقًا، وهو يبتسم ويهز رأسه:

– نعم، أنا إنسان سعيد... كما أني طلعة... يدفعني شوق تواق إلى المعرفة، معرفة كل شيء... ففي المعرفة حياتي؛ لأنها ترياق روحي ومثير شجاعتي. أريد أن أسألك: كم كلفك هذا العمل من جهد؟

فنظرت إليه وأجبته رغمًا عني:

– ما يقرب من شهر عملًا... وربما يزيد....

فقال بصوت ينبض بالحياة:

- آه! آه! جهد بسيط، تنتج عنه قطعة فنية، يساوي دائمًا شيئًا... ولكن هذا لا يحدث غالبًا على أية حال، وها قد رأيت أنه بهذا الثمن تضمن أن يعيش عديد من الناس الأخيار في تفكيرك وهم يقرأون عملك. ثم يخامرهم الأمل في أنه ربما ذات يوم، ها، ها... وعندما تموت... ها، ها، ها! ويمكنهم أن يكافئوك أكثر مما أعطيتنا... أليس كذلك؟

وضحك من جديد ضحكته الجافة المقبضة، وهو يتفحصني بعداء بعينيه الصغيرتين السوداوين. فتفحصته من الرأس إلى القدم، وسألته ببرود وقد انتابني الضيق:

- أرجو المعذرة... مع من أتمتع بالحديث؟

- من أنا؟ ألن تصير مثله؟ لن أخبرك... أيهمك الآن أن تعرف اسم الرجل الذي يحدثك؟

أجبته:

- بالتأكيد، لا... ولكن كل هذا... غريب.

ولست أدري لماذا اجتذبني من كم معطفي، وحدثني وهو يضحك برقة:

- حسنًا، لنفرض أن هذا غريب... لماذا لا يتيح الإنسان لنفسه أن يهرب من البسيط والتافه؟... لنتحدث قليلًا بصراحة- إذا لم يكن

في هذا ما يضايقك- صور لنفسك لحظة أني قارئ... قارئ غريب، شديد الفضول. يريد أن يعرف لماذا كُتب كِتَاب وكيف كُتب.. كتاب من تأليفك مثلًا! لنتحدث في هذا إذن.

قلت:

- أوه، على الرحب والسعة!.. فإنه يسرني أن أحادث الذين يشبهونني... فهذا لا يحدث كل يوم...

ولكني كنت كاذبًا؛ لأني كنت مستاء منه. وساءلت نفسي: ماذا يريد مني؟ ولِمَ أتناقش وأتجادل مع هذا الرجل المجهول في عرض الشارع؟

ورغم هذا سرت بجواره، وحاولت أن أكسو وجهي تعبيرًا يدل على الاهتمام والتعاطف حتى يأنس إليَّ. ولم أفلح في هذا إلا بصعوبة شديدة على ما أذكر. ولكني كنت رقيقًا، ولم أرد إهانته برفضي التحدث إليه، وإن كنت قد قررت أن ألزم جانب الحرص والحذر.

كان القمر يشع خلفنا وظلالنا تمتد تحت أقدامنا. وتمتزج في بقعة واحدة سوداء، وكنت أنظر إليها شاعرًا بشيء ما ينبثق من نفسي أسود، لا يفهم، ويزحف أمامي مثل هذه الظلال.

وسكت زميلي لحظة، ثم تحدث بلهجة من يسيطر على أفكاره، قائلًا:

- ليس ثمة شيء في الحياة أهم من دوافع الحياة الإنسانية...

أليس كذلك؟

فأحنيت رأسي موافقًا. فقال:

– هل أنت عند رأيي؟... إذن، لنتحدث بصراحة... لا تدع فرصة التحدث بصراحة تفلت منك، وأنت شاب!..

فتساءلت مفكرًا، ومهتمًا بكلماته:

– يا له من مخلوق غريب!

ثم سألته مبتسمًا:

– ولكن، أهكذا؟ ودفعة واحدة؟ وعن أي شيء نتحدث؟

فسألني، وهو ينظر إلى وجهي مباشرة وبألفة الصديق القديم:

– إيه! لماذا تبطئ الخطو عندما يمكن الوصول إلى الغاية بقفزة واحدة؟ لنتحدث عن غايات الأدب!

– كما تشاء... وإن كان يبدو لي... أن الوقت متأخر...

– أوه، ما زال الوقت مبكرًا بالنسبة لك...

فتوقفت مندهشًا من كلماته. فقد لفظها بيقين يثير الانتباه ووقعت مني موقعًا غريبًا. توقفت بغية أن أستوضحه شيئًا، ولكنه أثارني ثانية، وهو يشدني من يدي بلطف، ولكن بإصرار:

– لا تتوقف. لأنك تكون في الطريق المستقيم وأنت معي. دعنا من المقدمات!... وقل، ما غاية الأدب؟ إن من تخدمه يجب أن تعرفه...

فزاد حذري وقل هدوئي. ماذا يريد مني هذا الرجل؟ من هو؟ قلت:

– اصغ إليَّ، ما سبب كل هذا؟

– إن له سببًا كافيًا، صدقني إذا قلت لك: إن لا شيء يحدث في الحياة دون سبب كاف.. لنتقدم نحو الأعماق وليس إلى الأمام...

كان هذا الرجل الغريب، مثيرًا إلى أقصى حد، ولكني كنت متضايقًا منه. فأتيت حركة تدل على نفاد الصبر وأسرعت في خطوي.

فتبعني وهو يتحدث هادئًا:

– إني أفهمك! إنه عسير عليك الآن أن تعطيني تعريفًا يحدد الغاية التي ينشدها الأدب. سأحاول أن أفعل ذلك...

وتنهد ونظر إلى وجهي مبتسمًا:

– ستكون عند رأيي إذا قلت إن غاية الأدب هي أن يساعد الإنسان على فهم نفسه، ويدله على الخير الكامن فيه، وينمي فيه التطلع نحو الفضيلة، ويثير في نفسه الغضب على قوى الشر، ويزوده بالشجاعة ويحثه على فعل كل ما يجعل الناس أقوياء على سماحة وكرم أخلاق، ومحبة نفوسهم المقدسة بالجمال. هذا تعريفي، وهو بلا شك ناقص، بل قابل للتعديل والزيادة... فلنكمله بقولنا إن غاية الأدب هي أن يفعل كل ما يمكنه أن يحبب الحياة إلى الناس. ألسنا متفقين؟

قلت:

– بلى، إنه كذلك. من المتفق عليه عمومًا أن غاية الأدب هي أن يجعل الناس أخيارًا... إنه كذلك.

فقال هذا الرجل بلهجة جدية، وهو يضحك من جديد ضحكته الغامضة:

– هذا إذن الهدف الذي تنشده. ها! ها! ها!

فسألته، حتى لا تسحقني ضحكته:

– ولكن، لم تقول كل هذا؟

– فيم تفكر؟ حدثني بصراحة!

– إني أتحدث بصراحة!

كنت أريد أن أقول له قولًا جارحًا، ولكني لم أجده، فسكت... وساءلت نفسي:

– ماذا يريد بقوله: لنتكلم بصراحة؟ إن هذا الرجل ليس وحشًا. ولذا يجب أن يعرف كم هي ضيقة حدود الصراحة الإنسانية، وإلى أي مدى يضيق عليها الخناق حب الذات.

وألقيت نظرة على وجه زميلي، فما أسرع ما شعرت بالإهانة من ابتسامته... يا له من ساخر مزدر يثير الغيظ! وأحسست أني بدأت أخشى شيئًا، وأن هذه الخشية تضطرني إلى مفارقته.

فقلت بجفاء، وأنا أنزع قبعتي:

– إلى اللقاء.

فقال بصوت خفيض:

- لماذا؟

- إني لا أحب المزاح إذا جاوز حده.

- حسنًا! كما تشاء!... كما تريد... ولكن اعلم أنك إن فارقتني الآن، فلن نتقابل بعد ذلك أبدًا...

وضغط على كلمة «أبدًا» التي رنت في أذني كأنها جرس الموت. وأنا أكره هذه الكلمة وأخشاها، وتبدو لي بغيضة باردة دائمًا، أشبه بمطرقة قدر عليها تحطيم أعمال الناس. فأوقفتني هذه الكلمة.

وسألته بضيق وغضب:

- ماذا أفعل لك؟

فقال، وهو يبتسم من جديد، ويجذبني من ذراعي بشدة نحو الأرض:

- لنجلس هنا.

كنا عندئذ في ممشى حديقة عامة، بين أغصان الأقاسيا والليلج، الجامدة المغطاة بالجليد، وقد أنارها القمر، وتدلت فوق رأسي، ولاح لي كأن هذه الأغصان الجافة، المغطاة بالجليد، تنفذ في صدري وتخترق قلبي.

ونظرت إلى رفيقي مندهشًا من إشارته. ولزمت الصمت.

قلت متشجعًا طالبًا منه أن يوضح لي هذه التصرفات:

- هذا نوع من المرض؟

ويبدو أنه حدس أفكاري، فقال:

- أنت تظن أني لست سليم العقل؟ دعك من هذا. فهي فكرة سيئة ضارة! فكم رفضنا بسببها أن نفهم إنسانًا لمجرد أنه أكثر أصالة منا، وكم كانت سببًا في أن نهمل بعضنا بعضًا إهمالًا مهينًا!

قلت وأنا أخبر نوعًا من الحياء شديدًا أمام هذا الرجل:

- أوه، أجل. ولكن اعذرني، فإني أريد الانصراف... لقد حان الوقت.

فقال وهو يهز كتفيه:

- لتذهب... اذهب... ولكن اعلم أنك تسرعت في إضاعة نفسك... هيه، هيه، هيه...

وترك يدي، فابتعدت عنه...

بينما مكث في الحديقة، جالسًا على رابية تنحدر نحو الفولجا، توشحت بغلالة بيضاء من الجليد، تقطعها أشرطة الطرق الضيقة السوداء وينفتح أمامه منظر السهل الهادئ الحزين، خلف النهر. كان جالسًا، ينظر إلى الأفق البعيد المجهول، أما أنا فقد اشتقت العودة، وأحسست أني لن أقابل هذا الرجل ثانية، ولكني رغم هذا واصلت السير. سرت أسائل نفسي: أيجب أن أسير مسرعًا أم بطيئًا لأرى هذا الرجل الذي يرتاح جالسًا هناك، إنه لا يهمني كثيرًا؟

أما هو فكان يصفر برقة أغنية معروفة.. أعرف أنها أغنية كئيبة حزينة عن أعمى أخذ على عاتقه أن يقود العميان. لماذا يصفر هذه الأغنية بالذات؟.. وأدركت أنه منذ اللحظة التي قابلت فيها هذا الرجل دخلت في حلقة معتمة من الإحساسات الشاذة الغريبة. أين مراحي وسعادتي؟ لقد اكتنفهما ضباب انتظار شيء قاتم أليم يوشك أن ينبثق ويخنق كل ما أتاه نجاحي من سعادة، وأحلام وأمان أثيرت في نفسي.

وكيـف سـتقود القـطـــار

ما دامت لا تعرف الطريق؟

وصلتني هذه الكلمات من الأغنية التي يصفرها، فاستدرت ونظرت إليه، كانت ذراعه على ركبته ورأسه مستقرة على راحته، فتطلع إليّ وهو يصفر وشارباه الأسودان يلمعان في وجهه الذي أضاءه القمر. فقررت أن أعود إليه، مدفوعًا بعاطفة قاهرة. وسرعان ما اقتربت منه وجلست بجواره، وقلت له دون انفعال، ولكن بحرارة:

– اسمع، لنتحدث ببساطة...

فوافقني بانحناءة من رأسه:

– هذا ضروري للناس.

– إن لك عليّ لتأثيرًا غريبًا لا أدري مصدره، ولا شك أن لديك شيئًا تريد أن تقوله لي.. أليس كذلك؟

– أخيرًا، وجدت الشجاعة في نفسك لتصغي إليّ؟

وابتسم، وكانت ابتسامته هذه المرة أكثر رقة وأحسست أن فيها شيئًا يقرب من الفرح.

قلت:

- إذن تكلم، ولتتكلم دون غموض إذا استطعت.

- هذا جميل! ولكن ألا تعتقد أن هذا الغموض كان ضروريًّا لأجذب انتباهك. أما الآن فقد انحصر انتباهك في البسيط الواضح، وما هو بارد جامد، ونحن ببرودنا وجمودنا لا نستطيع أن نبث الحياة ونخلع الجمال على الأشياء الجامدة. يبدو لي أننا بحاجة إلى الأحلام، والخيالات الجميلة، والأفكار النيرة، والزخارف؛ لأن الحياة التي خلقناها، فقيرة إلى الألوان الزاهرة، وكئيبة وضيقة! إننا بحاجة إلى تغيير هذا الواقع الذي يقصم ظهورنا ويسحقنا.. ما العمل! لنحاول فربما أعان الأدب والخيال الإنسان على أن يسمو بنفسه ويجد مكانه المفقود. ألم يفقد الإنسان مكانه على هذه الأرض؟ أجل، فالإنسان لم يعد ملك الأرض، بل عبد الحياة، وأضاع فخر بكوريته على الأرض، وانحنى ذليلًا تحت وطأة الواقع، أليس كذلك؟ ومن واقع الحياة التي خلقها استمد نتيجة صاغها قائلًا: «هاكم قانونًا لا يلين». ولم يلحظ وهو السامي على كل القوانين، أنه في صراع الهدم في سبيل الإبداع، قد وضع عقبة في طريق الإبداع الحر للحياة. ولكنه توقف عن الصراع، ولم يعد يرغب إلا في أن يكيف نفسه مع القوانين... وفي سبيل أي خير يصارع؟ أعادت لديه مُثُل يضحي من أجلها؟

إن شقاء الناس وأحزانهم تكمن في هذا الخور والخنوع. وبسببهما ضعفت روح الإبداع في الإنسان. وهناك أناس يبحثون بعماء عن شيء يجنح الروح، فيعيد بناء الضمير في نفوس الناس، فلا يصيبون الطريق الصحيح حيث يوجد الخلود كله، الذي يجمع الناس تحت جناحيه، وحيث يوجد الله... وسيهلك هؤلاء الذين حادوا عن طريق الفضيلة! فلندعهم وشأنهم، فلا جدوى من الإشفاق عليهم! وإنما المهم هو أن ندفع النفوس نحو الله. وإذا كان في الحياة نفوس ترغب العثور على الله فهي التي ستحيي الناس؛ لأن الله هو التلهف الدائم إلى الكمال... ما رأيك؟

قلت:

- أجل، إن الأمر كذلك.

- إنك تعرف كيف تتظاهر بالموافقة.

وابتسم ابتسامة كاوية، وسكت، وهو ينظر إلى بعيد. وبدا لي أنه لزم الصمت طويلًا، فابتسمت نافد الصبر. فسألني، دون أن يدير نحوي ناظره التائه في المجهول:

- من إلهك؟

كان، حتى هذا السؤال، يتحدث بلطف وطيبة، ويمتعني الإصغاء إليه، وكان ككل الذين يفكرون، يشوب ملامحه الحزن، وكان جالسًا بالقرب مني، وقد فهمته، وزال جمودي نحوه. ولكن ها هو ذا قد ألقى

عليَّ سؤالًا عسيرًا، يصعب على أي إنسان في عصرنا الإجابة عنه، إذا كان صادقًا مع نفسه. من إلهي؟ آه، لو استطعت أن أعرف! وقد شعرت بالحرج من سؤاله هذا. ومن، في مثل حالتي، كان يحتفظ بحضور ذهنه؟

هذا، بينما هو لا يحول عني عينيه النفاذتين، ويبتسم منتظرًا إجابتي.

– لقد أطلت التفكير والصمت. ربما أمكنك أن تقول شيئًا لو سألتك السؤال التالي: أنت تكتب، وثمة أناس يقرأون لك، فبماذا تعظهم؟ ألم يخطر لك أن من حقك تعليم الناس؟

ولأول مرة في حياتي أمعنت النظر في أعماق نفسي. كم حاولت أن أدعي لنفسي ما ليس فيها أو أنزل بها عن مستواها لأجتذب إليَّ الأنظار، إن الصدقة لا تستجدى من الشحاذين. لقد اكتشف في نفسي قدرًا ليس قليلًا من العواطف الطيبة والخيرة، وما يراه الناس خيرًا، ولكن لم أجد بها العاطفة التي تجمع كل هذا، ولا النقاء والفكر الصراح الذي يضم في صفائه ظواهر الحياة كلها. بنفسي قدر كبير من البغضاء، يتزايد باستمرار... تجمع نفسها أحيانًا في نار تلتهب غضبًا. وتصل أحيانًا إلى حد يشوه ذهني، وتنوء بكاهلها على قلبي الذي أراه خربًا متلفًا... ولا شيء يثيرني إلى الحياة، فقلبي بارد كأنه ميت، وذهني نائم هامد، والأحلام المزعجة تشوش خيالي. وأحيا أيامًا ولياليَ طويلة، أعمى، أصم، أخرس لا أرغب شيئًا، ولا أفهم شيئًا، كأني جثة يمنعها عن الدفن

ظرف غريب. وحياة كهذه شديدة الخطورة؛ لأن فيها يتزايد الشعور بضرورة الحياة... فيتجمع في لذة البغضاء.

المهم بماذا أعظ الناس، وأنا في حالتي هذه؟ ماذا أستطيع أن أقول لهم؟ أليس فيما قال الأقدمون وما يقال الآن، شيءٌ يحيل الناس أخيارًا؟ وهل لي حق التبشير بهذه الأفكار والآراء، إذا كنت أنا نفسي، لا أعمل بموجبها؟ بماذا أجيب هذا الرجل الجالس بجواري؟

ولكنه بعد أن أعياه انتظار جوابي، استأنف الحديث قائلًا:

– ما كنت لألقي عليك هذه الأسئلة لو لم أر أن الغرور لم يفسدك بعد. لقد تذرعت بالشجاعة وأصغيت إليَّ.. فتبينت أن حبك لنفسك معقول؛ لأنك تحصنه بتقبل اللوم والألم. ولذا خففت من سوء موقفك مني، فتحدثت إليك كما أتحدث إلى زميل، لا إلى مذنب.. لقد عاش بيننا أساتذة المعرفة الكاملة للحياة والروح الإنسانية، رجال تدفعهم رغبة جامحة في تكميل الوجود، رغبة تثير إيمانًا عميقًا بالإنسان ودونوا الكتب التي لن يعدو عليها النسيان؛ لأنها حوت الحقائق الخالدة ومن صفحاتها يتضوع عبير جمال لا يفنى. وما بها من صور الحياة وأفعالها ومبادئها سيبقى إلى الأبد؛ لأن عبير الإلهام يمدها بحياة لا تنقضي. في هذه الكتب توجد الشجاعة والغضب الملتهب، والحب الخالص المخلص، وما من كلمة كتبت فيها عبثًا. وبها تستطيع تغذية روحك... ولكن لا يبعد أن روحك أسيئت تغذيتها؛ لأن كلماتك عن الروح والحب ترن مزيفة منافقة، كأن نطقها عسير عليك. إنك

مثل القمر، تشع بنور مسروق، ولكن نورك واهن بشكل يثير الحزن والأسى، يلقي ظلالًا كثيرة، ولكنه يشع ضعيفًا واهنًا لا يدفئ أحدًا. إنك أعجز عن أن تمنح الناس شيئًا ثمينًا، وما تمنحه لا تمنحه لأنك تجد المتعة السامية في إثراء حياة الفكر الجميل واللفظ، ولكن لتجعل من وجودك العارض ظاهرة لا يستغنى عنها الناس. إنك تعطي ما تعطيه للحياة والإنسانية طمعًا في الثمن. إنك أفقر من أن تعطي الهدايا، إنك لست أكثر من مستغل. إنك تعطي قطعة من خبرتك ندفع لك فوائدها تقديرًا. إن قلمك يخترق الواقع بصعوبة، ويلمس صغائر الحياة لمسًا رقيقًا، صحيح إنك تكشف إذ تصف عواطف الناس التافهة، عددًا من الفضائل لا يدركها ذكاؤهم. ولكن أيمكنك أن تبتدع لهم أكذوبة صغيرة، تقوم أرواحهم؟ لا، فأنت متيقن من فائدة نبش الحوادث التافهة العادية، ولا يمكنك العثور إلا على الفضائل الصغيرة المحزنة، التي لا تدل إلا على أن الإنسان شرير، وحيوان، ووغد، وأنه يعتمد كلية على الظروف الخارجية، وعاجز تعس، ووحيد متروك لنفسه. إنك تعتقد هذا في الإنسان؛ لأن روحك باردة وذهنك مضطرب... فكيف يمكن للإنسان أن يرى نفسه في كتبك؟ إن الكتب التي تكتب بهذا اليقين الذي تعتقد أنه موهبة، تنوم الإنسان وتخدره، أيمكن للإنسان أن يرى سبل التقدم في هذه الكتب التي لا يرى فيها إلا شروره؟ أيمكنك أن تغفل هذا، وأنت نفسك... ولكني أرى أني أوشك أن أعظك؛ لأني أشعر أنك في إصغائك إليَّ، لا تفكر في الطرق التي ترد بها عليَّ ولا في الدفاع عن نفسك. وهذا حسن! لأن الأستاذ، إذا كان شريفًا يجب

أن يكون دائمًا تلميذًا مجدًّا منتبهًا. أنتم كلكم، أيها السادة الحقيقيون للحياة، تأخذون من الناس قدرًا يزيد كثيرًا عما تعطونهم؛ لأنكم لا تتحدثون إلا عن الجوانب الشريرة التي لا ترون غيرها. ولكن يجب أن تهدوا الإنسان إلى الجوانب الطيبة فيه. ألا ترونها في أنفسكم؟ وهل تختلفون عن هؤلاء الناس العاديين المعتمين، إلا في أنكم تنقون أنفسكم من الشرور بقسوة وسرعة، تجعلكم متنبئين ومجاهدين في سبيل الفضائل؟ ألا تلاحظون أن الفضائل والشرور، بفضل مجهوداتكم في الحد منها، لم تعد إلا أكثر اختلاطًا مثل كومتين من الخيوط السوداء والبيضاء، أخذت الواحدة من الأخرى بعض لونها الأصلي؟ لقد أصبح من المشكوك فيه أن الله هو الذي أرسلكم إلى الأرض.. وكان يمكنه أن يختار من هم أكثر منكم قوة، ويملأ قلوبهم حبًّا عارمًا للحياة، والفضائل، والإنسانية، فيضيئون ظلمات الوجود مثل الكواكب التي تشير إلى قدرته ومجده. أنتم تدخنون مثل مشاعل نصر الشيطان، وينفذ دخانكم إلى العقول والنفوس فيسممها دافعًا إياها إلى أن تهزم نفسها. قل ماذا تعلم الإنسانية؟

وشعرت، على خدي، بأنفاس هذا الرجل الملتهبة، الذي لم أحاول النظر إليه إطلاقًا خشية أن يلتقي نظري بنظره. وانصبت كلماته في رأسي مثل الحمم، وساءني هذا. وفهمت مرعوبًا مدى صعوبة الإجابة عن الأسئلة البسيطة.. فلم أجبه إطلاقًا.

– إيه.. حسنًا! أنا القارئ النهم لكل ما تكتبه ويكتبه أمثالك،

أسأل: لماذا تكتبون كثيرًا؟ أتريدون إثارة العواطف الخيرة في نفوس الناس؟ لن تبلغوا مرادكم بالكلمات العاجزة الخالية من الحياة، لا! ولن تعجزوا فقط عن إعطاء الحياة معانٍ وقوى جديدة، بل إن القديم تبدونه في شكل ممسوخ، شائه، مشوه. ولن يستفيد الناس إذ يقرأونكم شيئًا، ولن يخجلوا من شيء؛ لأنكم لا تملكون شيئًا. أنتم تصورون دائمًا الآلام، والناس التافهين، والحوادث التافهة.. فمتى تتحدثون عن الروح المضناة وضرورة خلقها من جديد خلقًا رائعًا؟ أين دعوتكم لروح الحياة الخالقة المبدعة؟ أين دروس الشجاعة؟ أين الكلمات المثيرة للنخوة، التي تجنح الروح؟

إنك توشك أن تقول: إن الحياة لا تعطي صورًا غير ما نقدمها. لا تقل هذا لأنه عذر غير مقبول، وعار على من له شرف موهبة الكتابة أن يعترف بعجزه أمام الحياة واستحالة الارتفاع والسمو بنفسه فوقها. إنك إذا وضعت نفسك عند مستوى الحياة، وإذا عجز خيالك عن أن يخلق صورًا غير التي تقدمها الحياة، صورًا ضرورية لتعاليمك، فما فائدة عملك إذن، وكيف تبرر مهنتك ودعوتك؟

أتظن أنك لا تسيء إلى الناس عندما تزحم عقولهم وانتباههم بالاستعادات الفوتوغرافية لحياتهم الكئيبة المملة؟

لتعترف بأنك إن رسمت صورة للحياة بشيء من القوة، فسرعان ما تثير لوحتك في الإنسان خجلًا انتقاميًّا ورغبة عارمة في أن يخلق أشكالًا جديدة للوجود.. أيمكنك أن تزيد من سرعة محركات الحياة؟

أيمكنك أن تنفث في الإنسان الحماس والاندفاع مثلما يفعل الآخرون؟

وتوقف محدثي الغريب لحظة، ومكثت صامتًا أفكر في كلماته.

- أرى الأذكياء كثيرين حولي، ولكن الشرفاء منهم قليلون، وهؤلاء أنفسهم منشقون وقلوبهم مرضى. ولست أدري لِمَ أرى اليوم أنه، كلما كان المرء طيبًا، وروحه طاهرة شريفة، قلت حماسته وفتر اندفاعه، وانتابه الضعف والوهن، واشتدت وطأة الحياة عليه. الوحدة والقلق- هي نهاية أمثال هؤلاء. وكلما ازدادت رغبتهم في الخير، نضبت فيهم قوة إبداعه. فإذا كانوا مجروحين وتعساء إلى هذا الحد، فهل يستطيعون تضمين كتاباتهم الخلاص والنجاة عندما تنفذ إلى الروح؟

واستطرد محدثي الغريب يقول:

- أيمكنك أن تثير في الإنسان ضحكة فرح عامرة بالحياة؟ أرأيت أن الناس لم يتعلموا الضحك الخير المفيد! إنهم يضحكون ضحكًا شريرًا، يضحكون بوضاعة، يضحكون من خلال الدموع أغلب الأحيان، أما الضحكة المخلصة الفرحة فلا عهد لهم بها.. إن الإنسان بحاجة إلى الضحك؛ لأن الضحك إحدى ميزات الإنسان على الحيوان. أيمكنك أن تثير في الإنسان ضحكة غير ضحكة اللوم والتأنيب؟ أتفهم، إن حقك في الدعوة يكمن في قدرتك على أن تثير في الناس العواطف الشريفة الصادقة، التي هي مثل المطارق تهدم وتزيل أشكال الحياة الفاسدة، وبها تشيد وتبني أشكالًا أخرى أكثر حرية وتحررًا.

إن الغضب، والكراهية، والشجاعة، والخجل والنفور، وأخيرًا، اليأس الكاره، هذه هي العتلات التي تقوض ما على الأرض من فساد ودنس. أيمكنك أن تخلق مثل هذه العتلات؟ أيمكنك استخدامها حتى تنال حق التحدث إلى الناس؟ يجب أن تحوي روحك كراهية شديدة لهذه العيوب والنقائص، أو حبًّا عظيمًا لآلام البناء والتشييد، وإذا نقصت في روحك هذه العواطف، فلتكن متواضعًا وفكر كثيرًا قبل أن تقول ما تريد..

كان الفجر يوشك على البزوغ، ولكن الظلمات كانت تتكاثف في روحي. والرجل الذي فضت أمامه أسرار نفسي، يتحدث بلا انقطاع، وخطرت لي فجأة فكرة:

- ولكن أهو مجرد رجل؟

ولم يمكني تعهد هذا الخاطر؛ لأن كلماته عادت تنفذ في رأسي من جديد كأنها عقارب الساعة:

- رغم أن الحياة تزداد حدة وعمقًا، وإن يكن ببطء شديد، لأنكم أيها الكتاب ليس لديكم القوة ولا المعرفة لتسرعوا من حركاتها وتطورها. الحياة تخصب وتزداد نموًّا وثراء فتثير في الناس أسئلة عديدة. ومن يجيبهم؟ إنه عليكم أنتم أيها الرسل الغشاشون يقع هذا العبء. ولكن، هل فهمتم الحياة حتى تشرحونها للآخرين؟ هل أدركتم حاجات عصركم، وأحسستم بالمستقبل؟ وماذا تقولون لتحيوا الإنسان الذي أسيء علاج عيوبه وفقد الشجاعة؟

لقد تخلى الإنسان عن شجاعته، واهتمامه بالحياة ضئيل، ورغبته في الحياة الكريمة تضاءلت، إنه يريد فقط أن يحيا مثل الخنزير، أتسمع؟ ويضحك ضحكًا مهينًا إذا لفظت أمامه لفظة المثل العليا، لقد أصبح الإنسان كومة من العظام، مغطاة باللحم وبشرة تالفة، ولم يعد الفكر يقود خطى هذه الكومة الكريهة، بل الغرائز المنحطة. إنه يدعوك قائلًا: انجدني! ساعدني على أن أحيا وأنا ما زلت إنسانًا.. أتحسبون أنه بجئيركم، وأنينكم، ونحيبكم، وبالأصح، عدم اكتراثكم، يمكنكم أن تعيدوا إليه الظمأ إلى الحياة؟ أنتم لا تفعلون شيئًا إلا أن ترسموه وهو يتحلل. على سطح الحياة رائحة العفونة، والجبن والعبودية يسحقان القلب، والكسل يكبل النفوس والأيدي بالقيود اللينة.. فماذا أعددتم لهذه الفوضى من المفاسد؟ كم أنتم جميعًا ضعفاء وتافهون، تستحقون الرثاء؟ وكم أنتم عديدون؟ آه، لو يظهر رجل قاس عاطر القلب بالمحبة، وذو عقل قوي جبار!

وفي ضيقة الصمت الخجول رنت كلماته مثل رنين الأجراس، وربما سرت في نفوس الجثث الحية هزة الحياة.

وبعد هذه الكلمات لزم الصمت طويلًا. ولم أنظر إليه، ولا أذكر ما إذا كان ما عانيته خجلًا أم خوفًا؟

سألني دون احتفال:

– ماذا يمكنك أن تقول لي؟

أجبت:

- لا شيء.

وساد بيننا الصمت مرة أخرى.

- ولكن، كيف ستعيش من الآن فصاعدًا؟

أجبت:

- لست أدري.

- أليس لديك ما تقوله؟

فلزمت الصمت. فقال:

- ليس في الصمت حكمة عميقة.

في هذه الفترة التي تخللت هذه الكلمات ورنت ضحكته قاسية. كان يضحك منشرحًا كأنه لم يتح له طويلًا الضحك بمثل هذا السرور والانطلاق. واندفع الدم إلى قلبي تحت وطأة هذه الضحكة الساخرة.

- هيه، هيه، هيه! أأنت سيد بالحياة؟ أنت، يا من تسهل إثارتك! أعرفت الآن من أنا؟

أليس كذلك؟! ها، ها، ها... كم منكم أيها الشباب يحمل قلب شيخ عجوز، ويضيق إذا سألته سؤالًا بسيطًا! لا يرتعد أمام حكم ضميره إلا الذي يسلح نفسه بالكذب، والوقاحة، والطيش.. إنك تزعم لنفسك أنك قوي، ولكن ضربة هينة تلقيك صريعًا. قل لي، قل لي شيئًا يبرر موقفك، أو يدحض ما قلته! خفف عن قلبك وطأة الخجل والألم لتكن على الأقل، في هذه اللحظة، قويًّا واثقًا من نفسك كأستاذ! إني في

حاجة إلى ذلك؛ لأني إنسان ضائع في ظلمات الحياة وأبحث عن منفذ نحو النور، نحو الجمال، نحو حياة جديدة.. دلني على طرق الوصول، أنا إنسان- فاكرهني، واضربني، ولكن لا تلق بي في أوحال اللامبالاة! إني أريد أن أكون خيرًا مما أنا- فكيف أصل إلى ما أريد؟ إن ظلمات الشكوك تنوء بكاهلها على عقول الناس فيجب العثور على منفذ، فأين الطريق؟ سأعلمك! لا تدفع الإنسان نحو السعادة، فما فائدة السعادة؟ إن الشعور بالحياة ليس في السعادة، ولن يأتي يوم على الإنسان يقنع فيه بالرضى عن نفسه والاكتفاء بها، إنه فوق هذا كله...

إن الشعور بالحياة هو في الجمال وقوة الاتجاه نحو هدف وغاية، يجب أن تكون كل لحظة من لحظات الوجود ذات غاية واضحة وهدف منظور. وليس هذا بعسير... ولكن ليس في أطر الحياة القديمة، حيث كل شيء يتجه نحو الضيق وحيث لا حرية لذهن الإنسان وروحه...

وضحك من جديد، ولكن بشيء أكثر من الرقة، وضحك ضحكة إنسان يعمر قلبه الفكر الخصيب.

- كم تعمر الأرض بالناس، ولكن ما أقل الاهتمام بالإنسان! لم هذا؟ ولكن لنلعن الماضي، فإنه لا يثير غير الحسد، ولأنه لا يوجد الآن أناس سيتركون بعد موتهم أثرًا. الإنسان نائم... ولا أحد يتقدم ليوقظه. إنه نائم وقد أحال نفسه إلى حيوان. إنه في حاجة إلى سوط وإلى حنو يشتعل حبًّا بعد ضربه بالسوط. لا تخش إيذاءه؛ لأنك إذا ضربته محبًّا فسيفهم ضربتك ويقبلها كهبة عظيمة. وعندما يستاء من

نفسه ويخزى من فعاله، فاحن عليه بحب وعطف، خلق خلقًا آخر كله ثراء ونمو... ما الناس؟ إنهم لا يزالون أطفالًا، رغم أنهم يعجبون من شرورهم وجدب أفكارهم.. إنهم بحاجة دائمة إلى التربية، والمراقبة الشديدة، والحب، والاهتمام والعناية الولهى المشفقة، والغذاء الطازج الصحي لأرواحهم...

- هل تحب الناس؟

فأعدت قوله:

- هل أحب الناس؟

لأني في الحقيقة، لم أكن أعرف ما إذا كنت أحب الناس أم لا. يجب أن يكون المرء صادقًا مع نفسه، لست أعرف هذا الحب.

- لم تلزم الصمت؟ هذا لا يغير من الأمر شيئًا! إني أفهمك في سكوتك أيضًا.. إني ذاهب..

فسألته برقة:

- أتذهب الآن؟

فلقد أصبح قريبًا إلى نفسي، بعدما فعله بي.

- أجل، إني ذاهب.. ولكني سأعود ثانية.. فانتظرني!

ورحل..

أما كيف ذهب، فهذا ما لم ألحظه. فلقد رحل سريعًا دون ضوضاء، كما تختفي الظلال..

وبقيت جالسًا على مقعدي في الحديقة لا أحس البرودة من حولي ولا ألحظ الشمس وهي تبرز من خدرها وترسل أشعتها النقية الدافئة إلى أغصان الشجر التي جمدها الجليد. وأدهشني أن أرى النهار صافيًا مشرقًا والشمس تهب أشعتها للجميع، كعادتها دائمًا، بينما هذه الأرض العجوز ترقد متعبة، مغطاة ببساط من الجليد يلمع تحت أشعة الشمس.

❊ ❊ ❊

أمام الحياة

وقف رجلان أمام وجه الحياة القاسي الجامد يسخران منها.

فسألتهما الحياة:

- ماذا تطلبان مني؟

فأجابها أحدهما بصوت متعب:

- إني ثائر على تناقضاتك القاسية، فذهني يتخبط عاجزًا في محاولاته لفهم معنى الوجود، وروحي تخيم عليها ظلمات الشك، وقلبي يحدثني بأن الإنسان أسمى ما في الحياة وخير الكائنات كلها. ولكني تعس حزين.

فسألته الحياة، دون عداء:

- لماذا؟

- لأني أبغي السعادة! ولكن كي أحصل عليها، يجب أن أوفق بين أمرين لا يتفقان، هما:

«إرادتي» و«واجبك».

فقالت الحياة بقسوة:

– لترد «واجبي».

– لست أريد أن أكون فريستك، بل سيدك، الذي لا ينحني تحت نير قوانينك.

فقال الآخر الذي كان يقف قريبًا من الحياة:

– خفف من غلوائك.

فاستأنف الأول حديثه دون أن يعبأ بزميله:

– أريد الحرية في أن أحيا حسب رغبتي، وأرفض أن أكون بالواجب أخًا أو عبدًا، وإنما أريد أن أكون بالحرية، عبدًا أو أخًا! لست أرضى أن أكون حجرًا في مجتمع يحركه كيف شاء، وهو يشيد سجون سعادته. إني إنسان، إني روح الحياة وذهنها المفكر، فيجب أن أكون حرًّا!

فأجابته الحياة، وعلى شفتيها ابتسامة مُرة:

– رويدك. إنك ثرثار. وكل ما ستقوله أعرفه مقدمًا. أتريد الحرية؟ حسنًا، لتكن مشيئتك!

ولكن يجب أن تحاربني وتهزمني حتى تكون سيدي، وأكون عبدتك. إنك تعرف أني طيعة أستسلم بسهولة للفاتحين... ولكن يجب أن تهزمني.. فهل أنت قادر على أن تكافح معي لأجل الحرية؟

ما قولك؟ هل أنت ظمآن إلى النصر؟ وهل تؤمن بقوتك؟

فأجابها الإنسان بأسى:

– إنك تدفعينني إلى أن أغالب نفسي، إنك تحيرين فكري، إنك أشبه بخنجر ينفذ إلى أعماق روحي، ويعذبها...

فقاطعه الآخر قائلًا:

– لا تلن، لا تشك.

– قل، هل تريد أم تستجدي، وأنت تتحدث عن السعادة؟

فأجابها الإنسان بصوت واهن كأنه رجع الصدى:

– إني أطلب.

– إنك تطلب بعلو صوتك، كشحاذ تعود هذا العمل. ولكن يجب أن أصارحك، يا فقيري، بأن الحياة لا تمنح الصدقات للناس.. أتفهم؟ إن الحر، لا يسأل عطاياي، بل ينتزعها بنفسه...

أما أنت، فلست إلا عبد رغباتك. ليس حرًّا إلا من يمكنه التخلي عن رغباته كلها، وتكريس نفسه لواحدة. أفهمت؟ اذهب!

لقد فهم... ولكنه ربض كالكلب عند أقدام الحياة المستسلمة كي يلتقط دون عناء فتات مائدتها وبقاياها.

وتطلعت عينا الحياة القاتمة القاسية إلى الإنسان الآخر... وكان هذا ذا وجه مقدام جسور تبدو عليه الطيبة. وسألته:

- ماذا تطلب؟

- إني لا أطلب، بل أريد.

- ماذا؟

- أين العدالة؟ أعطنيها! وما عداها سآخذه بنفسي: أما الآن فتلزمني العدالة! لقد انتظرتها طويلًا، صابرًا، عاملًا، دون راحة، دون ضوء...

لقد انتظرت... ولكن كفى! لقد حان الوقت كي أحيا! أين العدالة؟

فأجابته الحياة، هادئة:

- هاك هي.

* * *

الكاتب المفتون

إنه لأمر سيئ شديد السوء أن ينال الكاتب حظًّا وافرًا من الإعجاب.

فالرطوبة الشديدة تنفع نباتات المستنقعات، ولكن أشجار الحور لا تتطلب منها إلا قدرًا معتدلًا.

وها أنا ذا بسبيل أن أقص عليكم قصة كاتب، سقط فجأة في مستنقعات الإعجاب والشهرة، وهو سائر صوب غايته. سأحدثكم بما حدث له عندما أثملته خمر المديح وعطر المجد الخانق، فسقط في الهاوية.

كان رجلًا بسيطًا معاديًا للشرور، يمتاز عن زملائه بإخلاص مثابر يضطره إلى أن يناقض نفسه في كل لحظة، وكل يوم.

وكان يعيش في بلد يتمتع فيها الأدب بشهرة عظيمة. وكان يتقبل أيضًا بارتياب شديد البشائر الأولى لشهرته الوليدة.

وذات يوم حدث نفسه قائلًا:

- عجبًا! كانوا من قبل لا يسمعون ضجيج الآلات النحاسية، فما بالهم اليوم يرقصون على نغمات الناي.

كما أن هذا الكاتب لم يكن مغفلًا. فقد كان يعرف أنه من العبث البحث عن «ناس» في بلده الذي لا يوجد فيه إلا «جمهور» وأن هذا الجمهور هو الذي كون الشهرات الأدبية وغيرها. وكان يعتقد أن الناس يحتقرون الكُتَّاب، ويؤمنون بالسحرة ويشْقَون بلا انقطاع، ولكن جوعهم لا يشبع، ولا يتوانون عن إبدال كل الآداب والفنون بجوال كبير من الدقيق.

كان الكاتب يعرف كل هذا جيدًا، ولكنه لم يكن قبل كل شيء، إلا إنسانًا. فكل الكتاب ذوي الفطنة والذكاء ليسوا إلا آدميين تختلف صدورهم سعة أو ضيقًا. وعلى هذا، فقد أحال حياته موضوعًا ينصب عليه إعجاب الجمهور. وكان قراؤه يهدونه خطابات المديح والثناء، فنعته أحدهم «بالموهوب» وقدم له آخر «الاحترامات الشديدة»، وكتبت له سيدة هذه الكلمات البسيطة المعبرة «أشكرك بشدة يا روحي الغالية». كأن الكاتب أهداها قطعة من القماش تصلح فستانًا، وبعث له أحدهم بالخطاب التالي:

«أيها الكاتب العزيز! دفعتني الرغبة إلى معرفة سبب إقبال الناس على أعمالك هذا الإقبال العجيب، فابتعتها وقرأتها، وما فرغت منها حتى أسرعت بكتابة هذه الأبيات التي ألهمتني بها كتبك:

أحلام ورؤى

عن حياة بلا قيود

تنبع من روحي المظلمة

كما ينبت الزنبق من الوحل

كانت تنبثق في خجل

وسرعان ما تحني الرأس

وتذبل براعمها الندية

وتتساقط في أعماق روحي الموحلة

وتسممها.

ولكن كلماتك القوية العاطرة

إذ تنفذ إلى قلبي الكئيب

تنير ظلماته، كاللهيب

فأحترق حماسًا وهوى

وأمتلئُ قوة وشجاعة

وتفوح نفسي

بأريج الحريق العطر...

وتقبل احترامي المخلص

سيلا كورشنوف

كما تقبل الكاتب دلائل أخرى على تعاطف الناس معه وتقديرهم له. ولكن شيطانه الملهم، همس في أذنه:

– لا تزعج نفسك أيها العبقري الصغير! إنهم يكافئونك على قدر موهبتك. إن هيام الجمهور بك أشبه بهيام عجوز هرم بصبية حسناء. دعك من التواضع، فالكاتب يحب المجد أكثر مما يحب نفسه. ها! ها! ها!.

ومن ذلك الحين شرع صاحبنا يتقرب إلى الجمهور، وجنى قدرًا كبيرًا من الإعجاب والاستحسان أفقده صوابه كما تفعل الخمر بالسكير. وبدت له الحياة دون مجد ضيقة وشاحبة، وفقد صوابه.

ولكن الصحوة لم تمهله، فقد وجد نفسه يومًا في مكان عام، محاطًا بالجمهور الذي كان يبدي نحوه علامات التقدير، ويصفق له بحرارة مصحوبة بصيحات: «برافو! برافو».

فتطلع، والابتسام على شفتيه، إلى هذا الحشد الذي لم يره من قبل بهذه الكثرة وهذا القرب... وفجأة اجتاحته كراهية غريبة لهذا الجمهور، ولاح له كأن الأيدي امتدت «تدغدغه» تحت إبطيه، وغزت رأسه آلاف الأفكار المتنافرة.

وبدا له أيضًا أن كل هؤلاء الناس يسخرون من أذنيه، وهم يرمونه بعبارات الاحترام والتوقير.

فأحس كأن أذنيه تكبران وتبلغان نسبة هائلة في الطول.

ولكن الجمهور استمر يردد هتافه ويصيح: «برافو!».

وأدرك الكاتب أنه لم يعد يتعلق بهذا الجمهور، فحدث نفسه قائلًا:

– إنهم يظنونني ملكًا لهم، وإني على استعداد أن «أتشقلب» كالبهلوان، وأطير في الهواء مثل «بالونة» صغيرة، وأتراقص أمامهم كاللعبة.

وهتف به شيطانه الذي يلازمه:

– انظر. ها! ها! هوه! هوه! انظر إلى هؤلاء!

فأذعن الرجل المسكين لأمره، وأبصر الحشد يتزايد، ومعجبوه يتجمعون بالمئات والمئات ويصفقون له كخير ما يستطيعون.

ونفذت أعين هذا الحشد إلى قلبه كعدد لا يحصى من الحراب، فتملكه الاضطراب، ونظر فرأى كل الوجوه تختلط وتمتزج في وجه واحد، جاف، قاتم، وجه حلت مكان العينين فيه بقعتان مختلطتان، وامتدت أنفه وتضخمت كخرطوم الفيل.

وصاح به الشيطان ثانية:

– ها أنت ذا ترى أن هذا الجمع يحب أنفه حبًّا زائدًا، ولكن لا نور في عينيه، ولذا فهو أعمى. وانظر إلى لسانه، ألا تراه؟

وانفرجت أمام عيني الكاتب التعس شفتان هائلتان حمراوان كشفتا عن فراغ فم مخيف يتحرك فيه طرف لسان مبتور لزج منتن،

يصيح:

- برافو! برافو!

فأغمض عينيه خائفًا ولاح له كأنهم يسوقونه إلى مكان ما...

وعندما فتح عينيه ثانية لم يبصر إلا أناسًا عاديين، ذوي وجوه باسمة وعيون لامعة تتألق سرورًا وتتأمله، كما يتأمل الأطفال لعبة جديدة.

وأزالت الابتسامات الرقيقة، والنظرات الوادعة خوفه، فقرر أن يحادثهم، وأن يقول لهم شيئًا من كل قلبه، شيئًا رقيقًا طيبًا.

وبعد أن وضع يده اليسرى على قلبه، تنهد وراح يقول:

- أيها السادة..

- برافو!

- سكوت! انتباه! إنه يتكلم.

- أيها السادة، لقد سرني احتفاؤكم بي.. وإني أفهمكم. فعندما كنت طفلًا، كنت أسمع الموسيقى العسكرية فتهزني وأجري خلفها. ولكني كنت أقل اهتمامًا بالجندي، يكاد أن تنفجر خداه وهو ينفخ في بوقه. وإني أشكركم...

- برافو.

- أجل، نحن نحبك.

فقال الكاتب متأثرًا:

- أشكركم.

فردد شيطانه:

- برافو!

- أيها السادة! لست أشك في صدق عواطفكم نحوي.. ولكني لا أدري السبب في ذلك. يخيل لي أحيانًا أني لم أظفر بتعاطفكم إلا لأني لا أرتدي سترة خارجية، وأستعمل في قصصي كلمات جافية. ويدور بخلدي الآن أني لو شرعت أكتب بقدمي اليسرى أشعارًا غنائية لزاد احتفاؤكم بي.

فصاح الجمهور:

- برافو.

- ولست أشك في أنكم قراء حقيقيون، بل أعتقد أنكم مداهنون منافقون. فالقارئ يعرف أن قيمة الكاتب هي في الطريقة التي يعكس بها عمله الروح الإنسانية، ويقرأ الأعمال الفنية دون أن يمنحها ثقته المطلقة، فتجعله يحدث نفسه: «هذا حق! ذلك يحدث أحيانًا في الحياة».

وبذلك يخلق القصة حسب عقليته، بينما أنتم عاجزون عن ذلك، لا تحيون إلا في الموبقات. كما أن القراء الحقيقيين قليلون. فأكثر القراء من معدنكم، ويجدر بي أن أصارحكم بأني لا أحمل

لكم احترامًا ولا أشعر نحوكم بشعور الصداقة، لقد حدثني زملائي بأنه يجب أن أحترم الجمهور، ولكن أحدًا منهم لم يبين لي السبب. أتستطيعون أنتم؟ ما قولكم في ذلك؟

وسكت الكاتب، واكتسح الجمع بنظرة متسائلة، فسكت هؤلاء وبدا عليهم الاستياء، وسرت فيهم ريح باردة.

وبعد فترة صمت طويلة قال الكاتب:

– ها قد تبين لكم عجزكم عن تبيان السبب الذي يقدركم الإنسان من أجله.

فصاح رجل ذو شعر أحمر:

– لأننا أناس.

– رويدك! كم من الناس بينكم، أنتم تزيدون على الألف، فهل بينكم خمس رجال فقط يؤمنون بأنهم كائنات إنسانية، وأنهم سادة الكون والحياة، وأن حق الكلام، والتفكير، والعمل دون قيد هي حقوقهم المقدسة، خمسة في المائة على أكثر تقدير يستطيعون الكفاح في سبيل هذه الحقوق، ويرضون الموت دفاعًا عنها. إن أكثركم عبيد الحياة أو سادة عاجزون..

لستم إلا برجوازيين زالت عنكم الصفات الإنسانية، ولم تعد لكم غير الغرائز الحيوانية، إني إذ أتطلع إلى عيونكم الضيقة الكسيرة، يتبين لي أن الشجاعة والشرف تكاد تكون منعدمة فيكم.. إن وطني للأسف

فقير في الرجال الشرفاء. ولكن الوقت الذي سنحتاج فيه إلى الأبطال قريب!

وما بلغ الكاتب هذا الحد من كلامه حتى أدار بعض المستمعين ظهورهم له وغادروا المكان، ولكنه استطرد يقول:

– إن الإنسان الذي تجري في عروقه دماء الحياة، يحثه شوق تواق إلى كل جديد مجهول، بينما أنتم تحيون حياة وضيعة راكدة وتمر عليكم الأحداث فتتقبلونها في إذعان وخضوع سلبيين. وتقضون حياتكم في جمود وركود عقيم. إن حياتكم أشبه بحجرة عاهرة تتزاحم فيه الزخارف البالية.. إن وجودكم تعوقه التقاليد المعوقة، والعادات الراكدة التي تقيدكم كالأصفاد، ولا تجرؤون على انتزاعها، وإذا حدث وهبت عليكم النسائم المنعشة من الحقول الطاهرة، تسرعون إلى إغلاق نوافذكم خشية الإصابة بالبرد. أنتم تكرهون التغيير، وتخافونه، ولا يعنيكم إلا موضوعات الحديث؛ لأنكم تتوهمون أنفسكم مضطرين لتسلية ضيوفكم، ولذا أشبهكم بالشحاذين الذين يستجدون الصدقة على عتبات الكنائس. أنتم تمدون نحو الأدب الأيدي مستجدين طالبين منه أن يمنحكم الذهول والغيبوبة. من قديم، والأدب بالنسبة لكم، ليس إلا «توابل» لحياتكم الحزينة. وإنه ليعجبكم أن تقرأوا الأعمال المكتوبة بدم الكاتب وصفرائه. وهذا كل ما في الأمر، فالأدب لا يزرع في نفوسكم حبًّا أو كرهًا؛ إنه لا ينتزع منكم إلا صيحات الإعجاب أو اللوم! أنتم لستم «أناسًا»، بل متفرجين

أو جمهورًا. وإذا فارقتم الدنيا، واحتوتكم الأرض، فلن يتغير شيء لا في السماء ولا على الأرض. وتظل الحياة في تيارها دون نبضة أسف عليكم.

أنتم جامدون لأنكم عبيد. إنهم يضربونكم، وتسكتون، إنهم يهينونكم، وتبتسمون. إنكم لا تتأججون غضبًا إلا على نسائكم، إذا لم يحسنّ طبخ غذائكم! إن معداتكم، وأرواحكم الحاسدة، ورغبتكم في المنافع المادية هي وحدها التي تحرككم.

«كم شوبنهاور على حق».

هكذا تجأرون عندما يضايق أقدامكم حذاء ضيق. ولكنكم عندما تسمعون الدعوة إلى الحرية والحياة، تصمون أذانكم و تشهقون قائلين: «ما شأنه بنا».

آه، لتذهبوا جميعًا إلى الشيطان! أنتم لا تدرون مدى تعاسة حياتكم وتفاهتها، وكم هي مؤلمة وعسيرة الحياة بينكم! إنكم تغرون أنفسكم بالتجني على الحياة. ولكن الحقيقة أن حياتكم هي التافهة والبائسة. وإذا أظهركم امرؤ على هذه التفاهة ودعاكم للحياة، تديرون ظهوركم له استخفافًا، أنتم لا يهمكم من العمل الفني إلا جمال الشكل، الجمال الفني! آه، أيها الجمال الذي يداس في الوحل!

وأخذ الجمهور يبتعد شيئًا فشيئًا، فهو لا يحب الحديث الطويل. ولم يتوقف شيطان الكاتب عن حثه بأن يصب ما بنفسه في جمهوره.

فصاح الكاتب:

- إن الحياة هي قصيدة الإنسان التي ينشد منها ألحان البطولة، ويجب عليه أن يستخلص منها المعاني العميقة. إن الإنسان يريد أن يكون قويًّا مثل أبينا سلست ولكنه عاجز عن التغلب على ضعفه. ألم تجربوا الشوق إلى الفضائل، والعدالة، والرغبة في الصدق مع النفس، وإنجاب الأبناء الأحرار، الملتهبين حماسة وإقدامًا، الذين يخطرون على وجه الأرض في جمال وحرية وبطولة، لا، فأنتم لا تطلبون إلا الطعام الدسم والدثار الدفيء، واغتصاب النساء والاعتداء عليهن، تحت ستار ما تدعونه الحب. إن السعادة التي تتصورونها وترغبونها، هي حياة معتدلة، هادئة، راكدة. وكل رغباتكم تنحصر في الحصول على الفرنكات والقروش. إن انتزاع السعادة يحتاج إلى أذرع قوية مفتولة، ولكنكم ضعفاء، وتافهون، وجامدون، لا تستطيعون صيد ذبابة دون مساعدة البخاخات الصغيرة المملوءة بالسائل القاتل. إني أرثي الذباب، فطنينها يحرمنا النوم، ولكن إليكم أوجه هذه الكلمات التي تميتكم عذابًا وخوفًا.

ولكني مخطئ، فأنتم تتعذبون أحيانًا، وتصرخون، وتجادلون المشاكل الفلسفية، وتبدو الحياة في أعينكم قاسية، وتعسة، وثقيلة عندما ينتابكم الضيق، عندما لا تفي مرتباتكم بمطالب عائلاتكم، أو عندما تخدعكم نساؤكم أو يسئن إليكم. وهذا الاستياء يقف يوم يزداد دخلكم أو تجدون سيدة جديدة. ولكن سبكم الشرير للحياة،

وشكواكم من المصير، وصيحات القنوط من أوهامكم، تسمم آذان أطفالكم وتحير أرواحهم. أنتم لا تهتمون إلا بتفاصيل الشقاء وتوافه الحياة، فتنطفئ حدة أذهانكم، وتغدو أشبه بسيف جعل لحز الرؤوس، استخدم في قطع الأخشاب. ويتبع أطفالكم طرقكم وهم متعبون من سماع شكاواكم ضد الحياة التي لا تعرفونها، وينضب حماسهم الفتي، ويغدون شيوخًا قبل الأوان، ويصبحون وكل همهم أن يبحثوا عن الحياة التافهة الهادئة، المريحة، المتوسطة، فيجدونها ويحيونها مثل آبائهم.

وأصبح المستمعون قلة حول الكاتب، وكان بعضهم يقدره مشفقًا، ويصغي آسفًا إلى هذا الحديث الخالي من أي جمال فني؛ لأنه لم يتعود مثله من الكاتب قبل هذا الحين. وكان بعضهم الآخر ينظر إليه ساخرًا. وكان الجميع مستاءين، وكانوا ولا واحد منهم يشعر بأنه قد أهين.

وصاح شاب حديث السن غاضبًا:

– كل هذا كلام! وضح لنا برنامجك العملي!

وتمتم رجل وقور متنهدًا:

– وأنا أيضًا كنت رومانتيكيًّا في شبابي.

وسألته امرأة ترتدي السواد:

– لماذا تسب النساء؟

وهتف به الشيطان، فاستأنف الكاتب حديثه قائلًا:

- يجب عليّ أن أذكركم بأنكم تحبون أن تتعسوا أنفسكم، ولا بد لي أن أناقش هذه الصفة الكامنة فيكم. فأنتم تفتقرون إلى الصفات الأصيلة التي تلهم التقدير والتعاطف. إنكم تحيلون أنفسكم تعساء لتثيروا الشفقة عليكم بأرخص الأثمان، ولذا تخلقون الأوهام السهلة لأنفسكم. إن مشهد الحياة يثير فيكم عاطفة الحب لها، ولكنكم تفتقرون إلى الحصافة والحب القوي لهذه الحياة التي تخشونها أيما خشية، وتسرقون فتاتها الكامن فيكم كاللصوص. أيها التافهون! أيها الشحاذون الفقراء! كم تقولون إن القدر يجمع العقبات في طريقكم، إني أطلب من الله أن يضنيكم بالشقاء، ويجلدكم بسوط الألم؛ لتخلقوا خلقًا جديدًا، وتتطلعوا إلى الحياة!

وظهر عدة رجال أمام الكاتب، وقال واحد منهم مرتبكًا:

- هذا ظلم، نحن لسنا كذلك.

فاستطرد الكاتب قائلًا:

- أيها السادة لا تطلبوا مني أن أكون عادلًا، فالعدالة لا توجد بعد على هذه الأرض. وهل يمكنها أن تنبثق منكم؟ من المستحيل أن تميزوا بين الخير والشر، فأنتم قد تعلمتم في شبابكم نفس العلوم، وتزودتم بنفس المعارف، وسوي بينكم كل شيء. وإني أفترض أنكم أنتم الخيرون، لأنكم لن تجرؤوا على تحمل العذاب إذا تعلمتم الشر. لقد رسخت المدارس في أذهانكم الكراهية، ومبادئ عدم المبالاة

بكل شيء، والرغبة في المواقف المريحة وغير هذا من الأفكار المشابهة. ولكنكم عندما تواجهون الحياة لا ينقص شرها. كلكم تذمون الشرور ولكنكم جميعًا ينقصكم اليقين الصادق في الخير، حتى هؤلاء الذين يذمون الشر بالكلمات البليغة... أتحاولون مكافحة الشرور، وإبادة الخيانات والوضاعة؟ لا... لأن أ خياركم يهربون منه بغرور ليتحاشوه..!

إن رغبة المرء في أن يكون نظيفًا هي رغبة جديرة بالاحترام، ولكن الرجل النظيف الحق لا يخشى الأوحال. لنقر... بأننا جميعًا مسئولون عن شقاء حياتنا، وما مصدر شقائنا؟ وأين تعلمتم الارتعاد أمام القوة، والخوف الرعديد على جلودكم؟ حسنًا، الحق أقول لكم إن انتشار الحقارات والمنكرات وازدهارها حولنا، لا سبب له إلا جبننا وإذعاننا الوضيع!

كلنا مسئولون عما في الحياة من شقاء وألم، وعما يجتاح العالم من منكر وشر. أقول هذا لأني مؤمن أشد الإيمان بأنه سيأتي وقت تمتلئ فيه الدنيا بالرجال الجسورين، الأقوياء..

فهتف به الشيطان مقاطعًا:

- كفى...

ونظر الكاتب حوله، فتبين أن جمهوره قد تفرق.

فقال:

– هذا غريب، أين ذهبوا كلهم؟ إني لم أنه كلامي بعد... إني...

فرد عليه شيطانه:

– إنهم لم يتحملوا نار حديثك! ها! ها! ها! أترى هذا الوحل على الأرض؟ إنه كل ما تبقى من جمهورك، ها! ها! ها! أيمكننا أن نرحل الآن؟

ولست أدري ما حل بصاحبنا، كما أني لا أريد أن أخترع نهاية لهذه القصة. فأنا لا أُكنُّ له شيئًا من الحدب والعطف.

وما زلت مقتنعًا بأنه من الخير للكاتب ألا يكثر معجبوه، فالرجال المضطرون إلى الاتصال بالجمهور عليهم أن يتجملوا دائمًا بالفضائل وينصرفوا عن الغرور.

هذا كل ما عندي لأقوله لكم.

❊ ❊ ❊

عشية الميلاد

جلست ذات مرة في حانة بصحبة رجل لم يسبق لي التعرف به من قبل، وكنت ضجرًا فأغريته بأن يقص عليَّ قصة من حياته. وكان هذا الرجل بالي الثياب، رث الهيئة، حتى ليخيل لرائيه أنه قضى حياته كلها وهو يخترق الأماكن الضيقة، أو يرض جسده رضًّا، مما جعل ملابسه عبارة عن مجموعة من الأسمال البالية، أما جلده فلم يكن له وجود كأنه سلخ عن عظمه سلخًا.

كان هذا الرجل نحيلًا، حاد الزوايا، أصلع، لا تزين جمجمته الصفراء شعرة واحدة، وخداه يتدليان على جانبي وجهه، ووجنتاه قد علقتا على شكل زاويتين حادتين. والجلد الذي يكسوهما لامع صقيل، بينما امتلأ وجهه بالتجعدات الدقيقة، وتألق من عينيه إشعاع الشراسة والذكاء، وأنفه غضروفي يثير السخرية، وكان حديثه ينساب

من فمه هادئًا رقيقًا. أما شفته العليا فقد غطاها شارب شعث الشعر.. فحملني كل هذا على الاعتقاد بأن لهذا الرجل حياة على قدر كبير من الطرافة.

سألني بصوت أجش:

- أتريد أن أروي لك قصتي؟ سأرويها لك ما دمت تدعوني إلى ذلك... إن قصة حياتي طويلة، ولذا لن أرويها لك كلها... فقد تضجرك، وإن كنت أجد في كلها لذة ما... ولكن إليك طرفة منها... أترغب في سماعها؟ موافق.. ولكن هل تتكرم وتطلب قدحين من الشراب مقابل ما سأبذله من جهد... ولا يخفى عليك أن الإنسان لا يسره أحيانًا التوغل في ماضيه، كما لا يسره الغوص في المياه القذرة!...

قد لا تبدو لك قصتي ذات أهمية، أو صالحة لأغراضك الفنية... ولكنها تعجبني.. كما أنها بسيطة جدًّا! وهاك هي:

حدث مرة في عشية الميلاد أن كنت ورفيقي ياشكا نتسكع في الشوارع ونعرض نفسينا على سراة المدينة لنحمل عنهم مشترياتهم من السوق إلى منازلهم، ولكنهم كانوا لا يعيروننا التفاتًا، فقد كانوا مضطجعين في عرباتهم ومنصرفين عنا... ومن هذا يتبين أن حالتي وحالة ياشكا لم تكن طيبة.

وساءت حالتنا فرحنا نستجدي المارة حتى تجمع لدينا مبلغ قليل، بلغت حصتي منه ٢٩ كوبكا وكان من بينها قطعة من ذات

العشرين كوبكا نقدني إياها سيد أمام المحكمة المركزية، ولكن تبين لي فيما بعد أنها مزيفة، أما ياشكا فكان أذكى مني وأمهر، فما إن أقبل المساء حتى أمسى ثريًا، فقد تجمع لديه أحد عشر روبلًا وستة وعشرون كوبكا، وزعم أن سيدة منحته هذا المبلغ، وأحسنت إليه أيضًا فقدمت إليه محفظتها وفيها منديلها الخاص ومرآتها الخصوصية!... لا تعجب، فأحيانًا يحدث أن يبلغ إنسان حدًّا من الطيبة يصبح معه كالمعتوه.. ويكون على استعداد لأن يؤذيك بإحسانه!..

وكان ياشكا وهو يحكي لي ما أبدته هذه السيدة التقية الكريمة نحوه من رقة وإحسان، يتلفت حوله باحثًا عنها؛ ليقدم تشكراته مرة أخرى. واستحثني عجلًا:

- هيا نرحل سريعًا.

فرحلنا مسرعين رغم أنفينا، فالبرد يقرص ظهرينا وكنا نرتجف من الرأس إلى القدم، وبنا لهفة إلى الدفء. كانت الرياح تهب عنيفة وتذرو الثلج من الشوارع ورؤوس المنازل، وتنثره في الجو فيتساقط باردًا قارسًا، ويلذع وجهينا لذعًا كضربات السياط، ويطوق رقبتينا المتجمدتين من الصقيع، فنحس كأنهما أصبحتا دقيقتين كالأصبع، وأنهما ستنقصمان حتمًا، وإذا بدرت منا حركة طائشة، اضطررنا إلى إخفائهما بين أكتافنا حتى لا نفقد رأسينا! كنا نرتدي رداء خفيفًا لا يناسب الفصل، ولكن ياشكا كان يشعر بالدفء، لتوفيقه، أما أنا فقد ضاعف الحسد شعوري بالبرد.

إنني شخص فاشل في هذه الحياة.. فليأخذني الشيطان..! فقد حدث مرة أن أهدي إليَّ «ساموفر» مليء بالماء المغلي؛ فانسكب الماء على قدمي وأنا أركض به مما ألقى بي في مستشفى السجن أسبوعًا ونصف أسبوع للمعالجة! وحدث مرة أخرى... ولكننا خرجنا عن الموضوع.. لنعد إلى قصتنا.

سرنا مسرعين، وكان ياشكا لا يكف عن سرد ما يحلم به ويتوق إلى تحقيقه.. قال:

سنستقبل العيد كأحسن ما يكون الاستقبال.. فندفع أجر البيت، وسنبتاع خير الخمر... أجل، زجاجة فودكا بأكملها، وشرائح من اللحم... ما ألذ الشرائح... ولكنها غالية الثمن... إنك لا تدري كم تكلف شاريها في هذه الأيام.. وأنا أيضًا لا أدري سعرها بالضبط، ولكنني أعرف قيمتها الغذائية، سنشتريها من حانوت غاص بالمشترين فكثرتهم تدل على جودة البضاعة.

وما إن وصلنا الحانوت حتى اندفع ياشكا بين المشترين صارخًا: اسمح لي ببعض الشرائح... أرني بعضًا منها يكون جيدًا غير كبير الحجم... وأخذ يجادل أحد الزبائن ويقول له: أرجو المعذرة فأنت أيضًا دفعتني في خاصرتي.. إنني أعرف الناس بالجاهل منا.. ولكنني أعلم أن اللين لا يجدي هنا.. لست مسئولًا عن ضيق هذا الحانوت بنزلائه... ماذا؟... أتقول إني لمست جيبك؟.. آسف يا سيدي، بل يدي التقت بيدك عفوًا.. إنني أشتري بمالي، فلا فضل لأحد على آخر.

كان ياشكا يجول في الدكان كأنه قدم ليبتاع كمية من الشرائح، ثلاثمائة قطعة مثلًا.. أما أنا فقد انتهزت الضجة التي أثارها زميلي، واستطعت بوسائلي المتواضعة أن أحصل على علبة من المربى، وزجاجة من زيت الزيتون، وقطعتين كبيرتين من المقانق.

وخرجنا إلى الشارع، وكان ياشكا يقفز فرحًا، ويسخر من «كوته» فقد كان يدعو أنفه بالكوة- وعيناه الرمادية اللون تشعان ببريق السرور، ويقول: لنحتفل بالعيد الآن... ولنفرح... وكنت أشاركه غبطته لأن الطعام اللذيذ النادر يسر الفقراء أيما سرور.

سرنا يا سيدي إلى منزلنا والرياح تدفعنا دفعًا... وكنا نسكن وقتذاك في ضاحية المدينة، وفي الطابق الأسفل من بيت تملكه عجوز طيبة تمتهن التجارة على عربة تجر باليد.. وكان حينذاك نائيًا، مهجورًا، لا يجرؤ إنسان على ارتياده بعد السادسة مساء، وإلا كان مغامرًا في غنى عن روحه..

وفيما نحن نهرول مسرعين رأينا شخصًا يسير أمامنا وهو يترنح.. لقد كان فيما يبدو مخمورًا.. فوكزني ياشكا وهو يقول هامسًا:

- إنه رجل يرتدي سترة من الفراء..

إن الالتقاء برجل يرتدي سترة من الفراء أمر له أهميته... فسترة الفراء يسهل نزعها عن لابسها لأنها تكون عادة بلا أزرار... سرنا في إثر هذا الرجل وكان قصير القامة، عريض المنكبين، يخطو مترنحًا، ويتمتم بكلام غير مفهوم.. ثم وقف فجأة فكدنا نصطدم به. وهز يديه

بشده، وزأر بصوت غليظ:

- إني وحيد... ليس لي أحد.

كانت كلماته هذه أشبه بطلقات المدفع، فارتددنا عنه، ولما أدرك وجودنا خلفه أسند ظهره إلى سور خشبي، كمن تعود أمثال هذه المفاجآت وقال:

- من أنتما؟ لصان..

فأجابه ياشكا بهدوء:

- إننا أخوان فقيران.

قال:

- أخوان فقيران.. أمر جميل.. أنا فقير مثلكما.. ولكنني فقير النفس.. فإلى أين تقصدان؟

فأجابه ياشكا:

- إلى كوخنا!

قال:

- هلا اصطحبتماني.. فأنا رجل شريد.. وفقير.. لا تدعاني وحدي.. وأنا كفيل بالطعام والشراب.. آوياني.. وارفقا بي.

فأسر لي ياشكا قائلًا: هاته.

لقد تبينت في صوت هذا الرجل أنه مخمور.. و تبينت فيه أيضًا

ألمًا وأنينًا يفيضان من قلب مريض مجروح.. إنني ذو قلب يتأثر، فقد كنت فيما سلف أعمل ملقنًا للممثلين في المسارح.. ولذا دعوته إلى بيتنا مخلصًا.

وقال لنا نافخًا صدره العريض: سأسير معكما.

فمشينا جنبًا إلى جنب، وهو يحدثنا قائلًا: أتعلمان من أنا؟.. أنا شخص هارب من العيد... إن مهنتي مفتش ضرائب، وأُدعى نيكولاي ديمتريفتش جانشارون.. ومتزوج ولي طفلان... إنهما صبيان أحبهما من كل قلبي... وأقتني في منزلي كثيرًا من الزهور، والرسوم والكتب... وكل ما في بيتي يخصني.. وكله جميل أنيق.. وبيتي مريح دافئ.. فلو كان أثاثي ملككما لأقام أودكما طويلًا... ولكنكما سكيران وأنا سكير أيضًا، إني مخمور الآن.. وأعرف أنني مخمور لأنني أكاد أختنق.. ففي الأعياد أشعر بالاختناق.. هذا أمر عسير فهمه عليكما.. وأنه جرح عميق.. وموطن الداء.

سرت أستمع إلى هذا الرجل بشغف، وصرت فيما بعد كلما رأيت شخصًا ضخمًا.. صحيح البنية، أقول لنفسي هذا شخص تعس؛ لأن الحياة ليست للأصحاء ذوي الأجسام، وإنما للحقيرين الضعاف، النحاف، حاول مرة أن تلقي في المستنقع درفيلًا فإنه يختنق لا محالة، ولكن الضفادع، والبزاقات، وغيرها من الحشرات لا تعيش إلا فيه. ولقد أثار هذا الرجل الغاضب فضولي واهتمامي.

واقتدناه إلى مسكننا الأرضي، فارتعدت صاحبته حين رأتنا

وظنت أننا سنسلبه، وهددتنا بإبلاغ البوليس إن حاولنا ذلك، فهدأنا من روعها، ولفتنا نظرها إلى هزالنا وضخامة ضيفنا، ذي اليدين الطويلتين والمنكبين العريضين، والصدر المتين... فبوسع هذا الضيف أن يزهق أنفاسنا جميعًا دون عناء.. فلما اطمأنت أرسلناها في مهمة إلى الحانة، وجلسنا ثلاثتنا إلى المائدة.

جلسنا في حجرتنا الصغيرة وشرعنا نحتفل بالعيد شيئًا فشيئًا. وجلس ضيفنا أمامنا وقد نزع فروته وظل في قميصه، وقال لنا بصوته الغليظ:

- يخيل إليَّ، أو على الأصح أحس أنكما لصان.. ولستما فقيرين كما تزعمان.. فأنتما لا تزالان صغيرين على الفقر! نظراتكما تدل على جسارة وقحة.. ولكن لا يهمني ذلك، فإني واثق من أنكما لا تخجلان من عيشكما، أما أنا فأخجل من حياتي... ولقد هربت من بيتي بسبب الخجل.

لا أظنك تجهل يا سيدي أن هناك مرضًا عصبيًّا يسمى (رقصة القديس فيتا)، وهناك أناس يعانون هذا المرض في قلوبهم!.. وقد تبينت أن ضيفنا المفتش كان منهم.

وتابع المفتش كلامه قائلًا:

- إن بيتي كامل الأثاث وهو أنيق جميل كل ما فيه مرتب منسق منظم.. ولكن الحياة في ظل هذا النظام تثير فيَّ المقت والنفور، فكل ما في البيت موزع ومعلق، وقد ثبت في مكانه إلى الأبد، فلا يقدر على

زحزحته، والزلازل نفسها لن تستطيع تغيير أماكن المقاعد والرسوم والرفوف.. كأن هذه الأشياء قد مدت جذورها في الأرض، وفي نفس زوجتي.. أجل، هذا الأثاث الخشبي، وهذه الجمادات، تغلغلت في حياتنا حتى صرنا لا نستطيع العيش من دونها.. أتفهم قولي.. إن ملازمتي لهذه الأشياء الخشبية قد خشبت نفسي، فأصبحت لا تفارقها وتهتم بها، وتشعر بالشفقة نحوها.. وهي تزداد وتغلني وتشغل كل ما حولي حتى لتكاد تطرد الهواء من بيتي، وتزهق أنفاسي... واليوم أعدت كل هذه القطع لاستقبال العيد فاغتسلت، وتزينت وانصقلت، وتألقت... وتألقها هذا يثير كراهيتي... وإني أتخيله كأنه يسخر مني، إن أثاثي يعلم تمامًا أنه لم يكن فيما مضى سوى ثلاث قطع هي: متكأ، ومقعد، ومائدة... وصورة للمفكر الروسي جيرتسين... وهي اليوم تنوف على المائة قطعة... وتتطلب بأن يجلس عليها أناس جديرون بقيمتها..

وجرع المفتش قليلًا من الفودكا وواصل حديثه:

– هؤلاء الزائرون المحترمون أشباه أحياء... إنهم بقر أتقياء... غذتهم الحشائش الطرية التي تنبت في مستنقعات الآداب الروسية... وحديثهم ممل أعلمه قبل أن ينطقوا به، وأعلم أنهم جامدون لا يستطيعون الإتيان بجديد... إنهم أناس يخشاهم المرء لئلا تعديه نفوسهم الخاوية الراكدة... إنهم جامدون، وحديثهم ثقيل كالحجارة... بمقدورهم أن يسحقوا المرء سحقًا... وعندما يزورونني أشعر كأنهم

يضعون عليَّ قوالب من الطوب بغية أن أظل تحتها حيًّا. إنني أمقتهم وأكرههم، ولكني لا أستطيع طردهم من بيتي... ولذا أكرههم... ولا أدعوهم لزيارتي.. فأنا شخص عابس، صموت... إنهم يأتون من تلقاء أنفسهم بقصد التربع على أثاثي.. وكم أود أن أقذف بهذا الأثاث إلى الشارع، ولكن كيف أفعل ذلك، وزوجتي تحب هذا الأثاث ولا تعيش إلا من أجله... لقد أصبحت هي نفسها قطعة منه!

وانفجر المفتش ضاحكًا وظهره إلى الحائط... أما ياشكا الذي سئم ثرثرة المفتش، فقد اغتنم فرصة انقطاع حديثه وقال:

– ولماذا لا تحطم أثاث بيتك على رأس زوجتك يا حضرة المفتش؟

– ماذا؟

– أعني.. أن تتخلص منه ومنها دفعة واحدة!

– يا للحماقة!

وهز رأسه المخمور وحناه على صدره وقال:

– إنه لأمر مخيف... العيد غدًا.. لن أقبع في البيت.. يستحيل أن أقبع فيه.

قال ياشكا:

– تكرم واقض العيد معنا!

فأجابه المفتش:

- معكما!..

وأجال نظره في أرجاء الغرفة فأبصرها مليئة بالأقذار، ثم قال:

- لا، فالنفس تتقزز من غرفتكما هذه.. ولكن خطر لي خاطر أيها الخبيثان، سنقضي العيد غدًا في الفندق أيها الماكران.. اتفقنا!. وسنشرب نخب العيد معًا.

أتريدان؟ وبعد هذا نفكر في طريقة نرتب بها عيشنا.. أجل، يجب أن نضع حدًّا لهذه الحياة المنسقة المرتبة.. ولكنكما لا تفقهان كلامي لأنكما لصان.

فقلت للمفتش في الحال:

- إنني أفهم قصدك تمامًا.

فسألني:

- ومن تكون أنت؟

قلت:

- أنا أيضًا كنت مثلك مهذبًا قويمًا.. وجربت لذة العيش الهنيء، ثم اعتصروا من روحي ما بها.. ولقد ضجرت مثلما تضجر الآن، ثم أدمنت الخمر.. وأتشرف بأن أقدم لك نفسي!

رمقني المفتش بنظرة حادة، وظل يتطلع فيَّ طويلًا متجهمًا صامتًا.. وشفتاه الغليظتان ترتعشان تحت شاربيه الكثيفين.

وفجأة سألنا:

- أأنتما كل من بالبيت؟

فأجبته:

- لا أحد سوانا.. ونحن نحمل على جسمينا كل ما نملك من حطام الدنيا!

فعاد يسألني وهو لا يكف عن النظر إلى وجهي:

- قل لي من أ نت؟

فأجبته:

- أنا إنسان... ومهما كانت حال المرء من الفقر والوضاعة فهو إنسان... ولقد كنت فيما مضى أستاذًا كبيرًا أتحدث بالحكم والأمثال!

فقال المفتش دون أن يرفع نظره عني:

- كلام جميل!

وتدخل ياشكا في الحديث متواضعًا:

- إننا أناس مثقفون.. فيمكننا أن نزاملك.. إننا أناس بسطاء ساذجون! ونكره مثلك امتلاك النفيس من الأثاث.. فما لزومه؟ إن الإنسان لا يجلس بوجهه على المقعد.. فخير لك أن تصادقنا.

فأجابه المفتش وكأنه قد ثاب إلى رشده دفعة واحدة:

- أنا؟

قال ياشكا:

- أجل أنت.. وغدًا سنطلعك على خفايا الدنيا وأسرارها!

فنهض المفتش على قدمين ثابتتين وقال لياشكا آمرًا:

- هات السترة!

فسألته:

- إلى أين أزمعت!

قال:

- أتسألني إلى أين!

ونظر إليَّ بخوف، وبعينين متسعتين شبيهتين بعيني الخروف، وارتجف كأنما قد سرت في جسده موجة من البرد وقال:

- إني ذاهب... إلى بيتي.

فنظرت إلى وجهه المترهل صامتًا. فلكل بهيمة في هذا الكون مرعاها، ومهما بلغ عدد البهائم التي ترعى في المرعى الواحد، تظل بهائم ولا تتغير.

وهرول المفتش إلى الشارع وسمعناه يهدر صارخًا:

- هيا أيها السائق!

وصمت محدثي وراح يرشف الخمر ببطء.. وبعد أن أتى على الكأس أخذ يصفر، وينقر على المائدة بأصابعه.

قلت:

- وبعد.. ماذا حدث..

قال:

- لا شيء.. ماذا تتوقع!

قلت:

- والعيد!

قال:

- وكان العيد.. ونسيت أن أخبرك أن المفتش أهدى ياشكا كيس نقوده.. ووجد به ستة وعشرين روبلًا وبعض الكوبكات... وكان احتفالنا بعيد الميلاد.

❊ ❊ ❊

قصة رواية:

انصرف الضيوف آخر الأمر، ومعهم رب الدار، وغاب عن النظر الخدم المتعبون من عناء الأيام الأخيرة الحافلة، وبدا المنزل كأنه غارق في أعماق الهدوء، حيث السكون السادر يحرك الأشجار، ويثير دائمًا في قلب صاحبته حنينًا إلى أن تلعب لعبة الخيال والذكريات في سكون...

كانت في السابعة والعشرين، صغيرة جميلة رقيقة، ذات وجه بيضاوي يحكي شحوبه لون العاج، أما عيناها فكانتا بلون الموج، لا يتناسب اتساعهما وذلك الوجه، فيظهرها أكبر قليلًا من سنها، وتظللهما أهداب وطفاء، ونظرتهما مزيج من الريبة والتوقع.

هناك نساء لا يبرحن ينتظرن شيئًا، ففي صباهن ينتظرن بتوجس مجيء الرجل المحب، فإذا أقبل وباح بحبه، يصغين بشغف، دون أن

يظهرن اضطرابًا، ولكن عيونهن تبدو كأنها تقول:

- كل هذا لا جديد فيه، فماذا بعد؟

من الخطأ اعتبار هؤلاء النسوة باردات ومقدرات للتبعة، فهن بعد الزواج يحببن أزواجهن مخلصات، ولكنهن ينتظرن بصبر قدوم حب جديد، قد يكون «آثمًا» ولكنه جديد، أمثالهن يهربن عادة مع عشيق تاركات ورقة مطوية مكتوبة بالرصاص وبخط ثابت يقول: «سامحني يا بول، إن الحياة معك لم تعد ممكنة». وغالبًا ما ينسين «سامحني» ويحيين مع الرجل الآخر حياة مرحة مضطربة أحيانًا، وحياة قاسية تعسة لم يعتدنها أحيانًا أخرى، ولكنهن في كلتا الحالتين لا يبرحن منتظرات جديدًا. أمثالهن يتحدثن قليلًا، فليس حديثهن مشوقًا، ولا يعنين بأن يتفلسفن غالبًا، ويتأففن من مآسي حياتهن، وينظرن إليها بتلك الكراهية الباردة التي تميز المرهفين، ولا يرغبن في إنجاب أطفال. وإذا وقعت أحداث مهمة، تبدو عيونهن كأنها تستفهم في سكون:

- أهذا كل شيء؟

ثم تتجهم عيونهن في تكشيرة عنيدة، ويردفن:

- لا، لا يمكن!

وينتظرن حتى تتلاشى الرغبات كلها تاركة ركودًا عميقًا قويًّا، أو يسلون عن طريق آخر.

* * *

واحدة من تلك النسوة الكريهات كانت بطلة القصة التي أقصها كما هي لأني لو أردت كتابتها كما أريد لعجزت.

كانت ملتفة بشالها البنزاوي الناعم، وقت أن خطت إلى شرفة مغناها الصيفي وجلست على مقعد طويل. وأوراق الإسفندان الأرجوانية والبتولا الصفراء تترامى متناثرة عند قدميها على الدرجات الثلاثة المؤدية إلى «التراس» النصف دائري. والسماء الذهبية تلمع خلال الأشجار، والجو يخيم عليه سكون خريفي، تتخلله موسيقى هادئة من أرغن العصافير الصغيرة المغردة. وتوسطت دائرة القمر الشاحبة كبد السماء اللؤلؤي.

وبعينين متثاقلتين، أخذت ترتب روحها، التي شوشها الضيوف وزوجها بأحاديثهم التي لا تنتهي عن تولستوي وصيد البط، وجمال الأيقونات الروسية القديمة، وحتمية الثورة، وأناتول فراسن، وروح المرأة الغامضة، وآخر روايات الكاتب أنتيب فومين وأكثرها فشلًا، وكوم من الأمور الأخرى، كلها يجب أن تزول، وتغيب عن الذاكرة، إلا أمر يستحق اعتبارها الزائد المخلص.

فعلى اليمين عبر أحد ألواح أرضية الشرفة يمكنك رؤية أثر عميق لضربة أحدثتها آلة حادة، حيث قتل فومين ثعبانًا ببلطة صغيرة تستعمل أحيانًا لتكسير أقماع السكر الكبيرة. كان رجلًا ثقيلًا بطيء الحركة، ولكنه في تلك اللحظة أظهر وحشية وحماسًا عظيمين، كأن قتل ثعبان كل مناه، فضرب الثعبان ضربة شديدة حطمت البلطة.

وفي مساء ذلك اليوم، وهنا على الشرفة، قرأ بداية روايته. كانت عن رجل حاول وسعه أن يكشف ما إذا كان طيبًا أم شريرًا، وبعد أن قام بأعمال عديدة، طيبة وشريرة، فشل في فهم أي شيء عن نفسه، ومات أخيرًا يغمره الأسى والسأم، غريبًا عن روحه.

لم يقرأ المؤلف إلا الفصول الأربع الأُوَّل، والفصل الذي يتحدث فيه عن موت بطله مخبرًا كيف ذهب بول فولكوف ليرى أخته حيث تقيم فتملكه نفور شديد من زوجها الذي كان رجلًا فظًّا مستهترًا يعتبر نفسه عاملًا فعالًا في نشر الثقافة.

ورأت المرأة أن هذه الفصول مملة، ما عدا وصف ليلة الصيف، فقد كان جميلًا، نابضًا بالحياة، وصورة البطل الذي، في محاولته، قتل المرأة التي تركته لغيره، يؤلف أبياتًا غضبى وهو جالس في مقعده من الحديقة فلم يصب في المادة إلا سطرين هما:

يشع القمر فرحًا في بهاء أشعتهـا
ويستلقـــي كامرأة بين عشيقيـــن

ولعن نفسه لافتقاره إلى الإلهام، ولكنه فشل في أن يكتب شيئًا أكثر.

في هذه المناسبة، تحبب فومين إليها أكثر من قبل؛ فحدثها عن وحدته بين الناس، وعن الناس أيضًا. ولكنها كانت تعرف أن الواحدة نادرًا ما تلقى رجلًا يخونه التحدث عن وحدته مع امرأة جذابة، وأن القليلين هم الذين يجرؤون على الفخر بسعادتهم. وكلما أصغت،

بدا فومين أشد تعقيدًا، وانتهت أخيرًا إلى فكرة غريبة هي أن فومين ليس رجلًا إطلاقًا، بل منصة تمثل عليها رواية غامضة لا آخر لها. لم يكن جميل الشكل، فهو يقف بين الرجال، بليدًا، ناتئ الوجنتين، شارد الذهن، كالطفل لا يعنى بنفسه. وتابعها بنظرة حارة من عينيه الرماديتين الحنونتين، وتكلم بصوت أجش، لكنه متلعثم، ولكونه يعرف هذا العيب في نفسه راح يزين حديثه بكثير من الإشارات والإيماءات المعبرة، وكان يخبط الأرض بقدمه أحيانًا كعازف البيانو. كما بدا كأنه ليس حاضرًا بنفسه، بل في مكان فيه خليط من الرجال والنساء والأطفال، والفلاحين والموظفين، كل يتكلم بصوته قائلًا أشياء متناقضة، سخيفة ومخيفة، ومكشوفة أحيانًا. ولكن أين فومين في هذا الحشد؟ ومن يشبهه؟ هذا أمر عسير تبيانه.

وفي غمرة حبه حدثها بكلمات ساذجة تعبر عما يحسه شاب يخبر لأول مرة سلطان تلك القوة التي تجلي الروح. وبعد أيام قليلة تحدث عنه ثانية بلا اكتراث تمامًا مثل الذي لم يعد يثق بنفسه، وتجتاحه أزمة عنيفة. وتساءلت: أيساعده فتونه بها على إرواء ظمأ قلبه؟ كان واضحًا لها أنه ليس ساذجًا ولا مستهترًا، ولا عطوفًا أو قاسيًا، ولا ماهرًا على قدر موهبته، وشعرت أن عدم اكتفائه سببه طموح لم يشبع.

قالت ضاحكة:

– آه، هل الأمر كذلك. أأنت لست شخصًا حقيقيًّا؟

ولكنها أرخت ناظريها فجأة. فقد كان ينظر إليها بدهشة واضحة.

وكأن ريحًا لا تحسها تهزه وترعشه. وذكرتها حركة جسمه الشاذة بغلالة تهتز في تيار الهواء.

أجابها:

- كم هو غريب أن تسأليني هذا السؤال. حقًّا، أظن أنك لا تفهميننني، أو لعل فومين لم يعن بخلقك قدر عنايته بي، فنسيت دورك، والمراد منك، أو ألا تكوني قد أصبحت مخلوقة حقيقية بوسيلة لا أستطيعها أنا؟ أم يكون فومين كتبك إلى نهايتك ونسي كل شيء عني؟ أتكونين شخصية كاملة تمامًا؟

فتمتمت لنفسها، مصغية لحديثه المضطرب: «أجل، إنه ممثل بارع».

وشعرت أنها تغرق في حلم على الرغم منها، وأن عليها بذل مجهود لتعود إلى نفسها.

قال:

- إنك لا تجيبين. كم أحب أن أعتقد أن صمتك يعني أنك تتذكرين؟ هل الأمر كذلك؟

فأحنت رأسها موافقة. فاستأنف حديثه:

- دعيني أذكرك ببداية الرواية.

- أعرفها.

- حسنًا، ماذا إذن؟

ومرت فترة صمت قصيرة، أعقبها قول لطيف منه:

– آه، أنا فاهم، لا شك أن فومين نسي أن يظهرنا معًا، أو لعله وضع آخر بدلًا مني. ولكن، ما لا أفهمه هو ما يبدو عليك من جهل بعلاقتنا. ماذا تقصدين أن تفعلي؟

أجابته:

– لا، إنه دورك الذي لا أفهمه تمامًا، حدثني عن نفسك.

– ولكني قلت كل ما أعرف.

– أي أنك لست موجودًا، كما قلت؟

أجابها محتدًّا:

– لا، المشكلة هي أني موجود، بالنسبة لك، طبعًا، حتى يقضي فيّ فومين أمرًا، ولكني في نفس الوقت موجود مستقلًا عنه.

– فاهمة، تمامًا كما يوجد هاملت ودون كيشوت مستقلين عن خالقيهما!

فأحنى فولكوف رأسه واستأنف حديثه:

– أجل، تقريبًا. ولكن ليس فومين سرفانتس طبعًا، كما أنه أقل من شكسبير. كما أني شخصية لم ينته خلقها بعد. على أية حال، أنا أجد نفسي في أشد المواقف سخفًا. فكري فقط، إني جلست على ذلك المقعد عامين كاملين! وعندئذ تقولين إن هذا سخيف. فالأيام تتوالى بعد الليالي، والفجر يتلوه الفجر، والغروب يعقبه الغروب، والغبار

والهجير، والصيف يغدو ويؤوب، وأمطار الخريف تروح وتجيء، والجليد يتساقط حولًا بعد آخر وعواصف الشتاء، كلها تجيء وتمضي، وأنا جالس أنتظر. يمر بي أحيانًا أناس، أناس حقيقيون، يتحدثون فيما له ضرورة وما لا ضرورة له. وذات مرة حاول شخص، نحيل منمش البشرة يرتدي حلة حريرية، أن يغوي فتاة صغيرة بدينة بقوله: إن في منزله الأخضر ينمو نوع من الأناناس لا حدّ لحلاوته. وعض أذنها كما يفعل الحصان تمامًا، فصرخت بلطف. كم هو غبي، وكم هو سخيف أن يجلس الإنسان ويفكر: أي أمر مضجر، وأي سخافة وبلاهة يمكن أن ينحدر إليها الناس الحقيقيون، وكم نحن المخلوقات المتخيلة أكثر أهمية وإثارة للاهتمام! إننا دائمًا أشد تركيزًا من الناحية الروحية. وإن فينا لشعرًا وشاعرية لا توجدان في الفنانين. آه من التفكير في أننا لا نحيا إلا لتسلية هؤلاء الناس الحقيقيين الثقيلي الظل!

كان يتكلم كمن يحس إحساسًا صادقًا بالإهانة، ورق وجهه الجاف، وصار أكثر إغراء. ولكن لعل مرجع ذلك إلى العتمة المخيمة على الحجرة.

- كما أني لا أعرف طبعًا ماذا يشبه الناس الحقيقيون، وعلاوة على ذلك، ما الحقيقة؟ هذه الحجرة مثلًا، وما تحوي- أهذه حقيقة؟ أم شيء ما مثلي ومثلك؟ لم لا تكون عبيرًا، أعني ثمرة خيال فومين؟

فمرت بيدها على وجهها، وهي ترمقه بغضب، وتمتمت:

- كل هذا شائق، ولكنه مُرْبِك بعض الشيء.

فأردف:

– طبعًا مُرْبِك ومحير. ولكنك تعلمين، أني خلال سنيِّ البطالة والجمود وأنا أنتظر فومين ليكملني، ليخرجني إلى الحياة لتسلية الناس، بدوت كأني قد اشتد عودي، وحزت جوهري، واقتربت في هيئتي من الكائن الحقيقي. أجل، إني أكاد أكون حقيقيًّا...

وشعرت المرأة بالضيق، وأرادت أن تقول ذلك لضيفها الغريب الواضح الخبل، ولكن الخادمة ظهرت في تلك اللحظة عند مدخل الحجرة، وهي تلهث كسمكة في آخر الشبكة، فسألتها:

– ماذا في الأمر يا كلاشا؟

– ألم تناديني؟

– أنا! لا.

– آسفة. ظننت أني سمعتك تتكلمين.

– قطعًا لا، ألا ترين؟

ونهضت، ونظرت حولها، وأغمضت عينيها في عجب. لقد انمحى فولكوف الذي كان واقفًا هنا مستدبرًا النافذة. ومن خلال زجاج النافذة المعتم في أشعة الغسق، رأت أوراق الخريف تهوي في الهواء الأخضر من أفنان أشجار اللوز الساكنة. وتطلعت حتى كَلّ بصرها، وخيل إليها آخر الأمر أن خيطًا أسود دقيقًا يخترق زجاج النافذة. قالت بشيء من الكدر:

- أجل، لقد دعوتك، أحضري الشاي.

وحالما انصرفت كلاشا، أخذت تفكر:

- أعتقد أن هذا ما يسمى هلوسة النظر والسمع، أو الرؤية المركبة. كيف حدث ذلك لي؟ غريبة...

وغرقت في مقعدها، ومدت ساقيها وغطتهما بغطاء موشًّى بزهرات الكريز والتفاح.

- يجب أن أكتب لفومين عما حدث. فقد يوحي إليه هذا بفكرة جديدة يكتب عنها.

وتبينت بأي فوضى كانت هذه الأفكار تضطرب في ذهنها، وهنأت نفسها بزوال الكابوس.

- حسنًا، كنت أقول...

سمعت نفس الصوت الجاف وأبصرت الرجل واقفًا بجوار النافذة كما كان من قبل، يمسح جبهته بيده ويلوح بقبعته بالأخرى.

فقالت بصوت مضطرب:

- أرجو المعذرة، أين كنت عندما قدمت الخادمة الحجرة؟

ففتح عينيه إلى آخرهما وخطا نحوها خطوة، فمدت يدها صوبه، بحركة سريعة مانعة. قال، وهو يهز كتفيه ببلادة:

- لماذا؟ لقد كنت هنا بجانبك. أرى ناظرك تاه عني. وذلك لأني كنت واقفًا جانبًا، كما أني مسطح كبطاقة أو صورة. أنسيت؟ ولكنك

مثلي أيضًا.

فاحتجت عليه قائلة:

– لا! لا! لا!

فقال وهو يتنهد:

– كم هو صعب أن يترضاك المرء.

ووقع قوله منها موقع الصدى لارتباكها، ولكن تقاطيعه كانت جامدة كتقاطيع وجه في صورة. ولاح كأن ظلًّا عابرًا يطفو على وجنتيه الشاحبتين اللتين تشبهان ابتسامته الكريهة، ويأتي من مكان ما خلفه غريبًا أشبه بانعكاس على الماء يراقصه النسيم.

قالت في نفسها متعجبة: «كيف يفعل هذا؟» وهي تمعن فيه النظر، وأمرته فجأة أن ينتقل إلى اليسار قليلًا، فتحرك بسكون ووقف أمام المرآة التي لم تعكس شكله الرمادي بسبب عتمة الغسق. وأخيرًا حدثت نفسها قائلة: «هلوسة! ذلك ما في الأمر».

واستطرد فولكوف:

– أنت شخصية قاسية جدًّا، أرى أنك ترتابين فيَّ ثانية؛ لأنه ليست لديك الشجاعة لتقبليني كما أنا.. ولا أعتقد أن موقفك هذا يتفق وخطة فومين الأصلية. وعلاوة على ذلك...

وتمايل ذهابًا وجيئة وبدا كأنه يطفو في الهواء وهو يقول:

– وعلاوة على ذلك، أشعر الآن أني حقيقي بما فيه الكفاية لأكمل

الرواية الناقصة على مسئوليتي. إني أرفض أن أستمر في حياتي هذه العاطلة المنتظرة. لن أعود لأجلس على مقعد الحديقة ذاك، معرضًا لكل تقلبات الجو، أستمع إلى أحاديث عن البطيخ، ونهاية الوقت، وتدمير المادة ومظاهرها. لقد خلقني فومين ثم نسي كل شيء عني. ولقد سمعت أن الله يفعل ذلك مع الناس الحقيقيين، ولكنه ولا شك لديه أسباب قوية تبرر... فِعاله الغامضة. أما فومين، فهو كما أعلم، شخص جد عادي، وعدواني، وغشاش، يقلد الله في لعبته الإنسانية الشطرنجية مع شريك مجهول. وأنت تعرفين أن رأيي فيه أنه مجنون. عليك أن تريه عندما يكون بمفرده! إنه يملأ حجرته بمخلوقات من خياله، وأكوام من أشباح مجنونة مثله، لا يعرف ما يفعل بها. إنه مجنون حالم. ولقد فكرت فيه كثيرًا خلال السنتين السالفتين من حياتي النصف شبحية، وإني لمندهش لطموح الرجل الجنوني. فكري فقط أنه يعرف جيدًا كغيره من المؤلفين أنه يعقد الحياة ويعرقلها بطريقة لا فائدة فيها، ويملؤها أشكالًا خيالية. ما هي بعد كل ذلك؟ أشخاص وأشياء من الواقع في صميمها، ولكنها محرفة بحسب أذواق وميول سحرة الكلمات هؤلاء. وعلاوة على ذلك، هم أيضًا، مخلوقات خيال إنسان أو شيء ما، تبعث بينهم الحياة لتسلية الآخرين، ولكنهم لا يعلمون! أتعرفين أنهم لا يعلمون ذلك؟ ليس هناك وحوش يسخر الناس الحقيقيون منها بقسوة مثل هؤلاء الذين يبدعون الخيالات المزروعة في حقول الواقع لأجل تزيين الحياة. ولكن ألا ترين أن الحياة تكون أكثر سهولة وراحة، وأقل ازدحامًا بالعناصر المتناقضة، لولا هؤلاء

الدونكيشوتيون، والفاوستيون، والهاملتيون؟ فكري في هذا فقط.

ألقى فولكوف هذه الخطبة بحيوية عظيمة وقدر كبير من السخرية، واقتناع وحكمة لا تتوافران إلا في نقاد الأدب من الأشخاص الحقيقيين وهذا دائمًا علامة الجهل الروحي. وتمايل بغرابة على قدميه، متموجًا كالسراب، رغم أن خياله احتفظ بمظهر الكائن الإنساني. ولكن كل ما حول المرأة اختلط، واعترتها نشوة فضول غريب.

وأردف:

- أجل، لقد عزمت على أن أكمل الرواية بإبداعي. ولا يعوزني إلا امرأة- أو بالأصح- أن أقنعك أني أنا الرجل الذي قدره لك فومين.

ونظر إليها متسائلًا، وأردف متضايقًا:

- ففي هذا العالم الملعون، قدر بحماقة أنه لا يمكن للرجل أن يخطو خطوة دون امرأة، وأن تصبح الحياة أيضًا مضجرة من دونها...

فقالت ببطء:

- لو أستطيع فهمك!

وتوقفت كأنها أثيرت بفكرة غامضة ثابتة لا تفتأ تملأها بحرارة غريبة.

فسألها ملحًّا وهو ينحني عليها:

- أجل، ماذا تريدين أن تقولي؟

وعندما أحضرت الخادمة الشاي، لم يختف.

- أحضري فنجانين يا كلاشا.

- اثنين!

- طبعًا.

وتساءل فولكوف وهو يشير إلى الخادمة الراحلة:

- أهي أيضًا مخلوق أبدعه خيال فومين؟

ولكي تتحاشى إجابته، أحنت رأسها، فظن فولكوف أنها أجابت موافقة.

- لا يمكن أن أفهم لماذا يختار إنسان شكلًا قبيحًا كهذا! يشغل به خياله؟

- سوف تحصل على قدر من الشاي.

ورفع هامته، ثم قال بلهجة حزينة:

- إني أعجب من أنك لم تقدمي لي البراندي أو الفودكا! من الواضح جدًّا أن فومين لم يكملك تمامًا فأنت لا تعرفين كيف تتصرفين. وهذا يؤكد أننا نقوم بمهزلة بدلًا من أن نمثل رواية. والحق أني لا أعرف ما يجب عليَّ أن أفعله. فمتى أنجز دوري، يجب أن أحصل على امرأة، وواضح أن المرأة أنت. ولكن الظاهر أنك لا تعرفين دورك، أعني لا تفهمين- أو بعبارة أخرى- لم ينتقك فومين بالعناية التي انتقاني بها، فأنت لا تصدقين حتى عينيك، وليس لدي وسيلة لإقناعك بأني لست شبحًا أو هلوسة، ولا (أرجوك أن تتمعني هذا) مخلوقًا أبدعته تهويمة

من تهويماتك. لا، لست منك، ولكني من فومين، أفهمت؟

كانت ترى أن كل هذا هراء لا يتصور، أو فكرة مجنونة، وأعتقد أن قارئي الفطن يتفق معها في هذه الحالة فقط على العموم! فقد عرفت قارئي من ثلاثين عامًا. إنه شخص قوي الذهن بدرجة مخيفة، وزاد تقديري لذكائه معرفتي بذلك العناد الرواقي الذي يحاول به أن ينسى العبث التافه لوجوده القاسي، الذي يشبه الاستشهاد إلى حد بعيد.

إني أمتلئ انفعالًا وأنا أرى الاحترام الذي يقدر به القارئ الواقع الخيالي الكدر الذي يخلقه بنفسه وأعجب بالرعب الذي يخيم على القارئ كلما حاول خيال المؤلف الثائر أن يرفع عبثًا صوته الجريء، ولكنه الضعيف ضد الواقع، تلك الشبكة القوية الضيقة المنافذ لما لا يحصره حصر من السخافات التي تخلل القارئ كالرنجة في الماء الأجاج. وأحترم قارئي لأنه وإن يكن مادي الصورة، لا يحتج عندما أحاول على حساب خيالي أن أجعله أحسن، وأهم وأذكى مما هو في الواقع.

لا شك أن هذه لفتة لا مبرر لها، ولكني اندفعت نحوها لرغبتي في أن أوجه مديحًا صادقًا للقارئ، والمديح مرحب به في أي وقت، وأي مكان، ولكن دعنا نستمر في قصة الرواية التي لم تكتب.

لقد لاحظنا أن المرأة لم تعتقد في كل هذا، ولكنها صممت أن تعالج الموقف بكل اهتمام، لا خوفًا من أن تكون على حافة الجنون- آه، لا.. بل.. لأن فكرة أخذت تتجسم في ذهنها، فتمتمت:

– لماذا لا يمكنني أن أفعل ما يفعله فومين؟ فليس خلق شخص من خيالي عملية صعبة أو خطرة كحمل الأطفال!

وقالت وهي تنظر إلى ضيفها:

– بقدر ما أذكر رواية فومين...

فتوقفت، ثم أردفت مبتسمة:

– كيف حدث هذا؟ كيف خلقك؟

فأجابها فولكوف بنفس الابتسامة المنبعثة من الخارج إلى وجهه:

– في الحقيقة لا يمكن أن أخبرك، فلقد شعرت فجأة، وبطريقة ما، أني موجود، وأن اسمي بول فولكوف، وأن لي شعرًا ناعمًا، وغير ذلك. وأظن أن قصتي التعسة الفاشلة يفسرها أني رجل مفكر، مغرم بالتحليل! مهتم بنفسي خاصة، وما عدا نفسي، أعني ما يسمى بالعالم الخارجي، فليس إلا موضوعًا تدور عليه تأملاتي، ومصدرًا للتأمل. وهذا ما يجعلني أنسحب إلى داخل نفسي، ولكن من الناحية الأخرى، هناك شيء داخل روحي يحاول دائمًا أن يطفو إلى الخارج. لقد أتيت لأحيا حياة شديدة الاضطراب لا راحة فيها، ولكني أعتقد أني في النهاية سأتبين نفسي خلال فوضى الأشياء المتنوعة، وأجمع نفسي في كل، في شيء جد جاد، وأنفذ بسهولة إلى عمق الأسرار. يلوح لي الآن أني كنت موجودًا قبل أن يتصورني فومين، ولكن أشبه بكومة من شذرات متفرقة، أو أجزاء غير ملتئمة، أعني شيئًا لم يربطه الفكر،

أو الشعور أو الرغبة، الذي يدل على هدفي. ذلك كل ما يمكنني أن أخبرك عن نفسي.

فقالت المرأة في نفسها، متيقنة بعض الشيء:

– إنه ليس إلا رجلًا عاديًّا، ظاهر التواضع. لن أخرج من عقلي مطلقًا. إني مجرد مشاهدة لشيء لا أفهمه، كما أنه لا بد أن في الأمر خدعة.

واستطرد فولكوف قائلًا:

– لا شك أن فومين لم يخلقني، إلا لأنه أرادني أن أعبر عن حقيقة من حقائقه. فلا شك أن خيال المؤمنين يخرج إلى الحياة دائمًا لإعلان الحقائق، ألا تظنين ذلك؟

لم تجرؤ على أن تقول «نعم». فهذا الرجل، قبل كل شيء، غريب عنها تمامًا، ولعله مجرد شخصية خيالية. فلماذا تكشف له أسرار العالم القليلة؟

ماذا يكون لو أن عالمًا يعمره أناس ذوو بعدين كالفئران اليابانية، وقالت لنفسها إنه لو كان فانيًا عاديًّا، لاكتشفته لحظة أن بدأت الحديث معه. وعلى ذلك أزاحت الغطاء عن سامتها المغرية وتركتها عارية تمامًا. وقالت:

– إني أذكر أن فكرة فومين عنك كانت بالضبط مطابقة للوصف الذي وصفته.

فأجابها:

– إني مسرور لذلك. إنه دور في غاية الصعوبة، ولكني مسرور لأنك قلت ذلك. فإذا ما خلق الإنسان، ليس عليه إلا أن يعيش.

فوافقته بعد لحظة تفكير، قائلة:

– أجل، هذا حق، إن عليك أن تلتقي بواحدة من تلك النسوة اللائي ينتظرن دائمًا جديدًا يأخذ طريقه إلى حياتهن، ويحزمن أمرهن دائمًا، ولكنهن يتصرفن على غير المتوقع منهن، أي عكس ما قررن تمامًا وإلى آخر يوم في حياتهن، أو على الأقل إلى أن يبلغ العمر بهن أرذله، تبدو الحياة لهن حافلة، إلا أنهن تنقصهن الرغبة والجرأة ليتعلقن بلذائذ الحياة بعماء.

يلوح أنهن يظنن، رغم ما خبرنه، أن اللذة الأعظم والأحلى لا تزال منتظرة لم تقطف. وإن اكتشافها والتمتع بها مبتغاهن الأسمى، وإني واثقة إني لست من ذلك النوع من النسوة، وعندما خلقك فومين لم يكن يفكر في علاقتي بك. ورغم أنك تعرف هؤلاء المؤلفين...

فأبدى فولكوف علامة غضب، وقال:

– أجل، أعرف ما تقصدين. إنه مخيف! إنه البشاعة المجرمة! لا يمكن أن تتصوري كم هناك من كائنات قبيحة، ناقصة، خيالية مثلي ومثلك.

– كذا!

قالتها بشيء من الغضب، ثم أضافت بشدة:

- أتقول قبيحة؟

فلم يكلف نفسه عناء إجابتها، ولكنه استمر في حديثه بحيوية غدت إنسانية شيئًا فشيئًا، رغم أنه كان يتكلم بنبرة شاكية:

- إنهم يظنون أن إبداعًا منهم، إذا ما وضع على الورق، هو كل ما في الأمر. وينسون أن الإطار هو ما يبقى على الورق، أما الصورة فتخرج إلى الحياة لتعيش، كما أعيش أنا وتعيشين أنت، «فيض نفسي- جسدي»، فنتيجة انحلال ذرات الذهن والطاقة العصبية، شيء أكثر حقيقة من الأثير. ولكنك تعرفين هذا طبعًا.

- آه، طبعًا. ولكن لماذا لا تجلس بجوار المائدة؟

ووضح لها أن خدعها الصغيرة مرت دون أن يلاحظها، فتنهدت. وحاولت أن تتصور نفسها في عالم أناسه نصف كاملين، ولكنها لم تستطع؛ لأنها رأت أمامها حلقة معارفها كلهم، الذين لم تنجح في العثور بينهم على الرجل الذي ينقصها، الرجل الكامل كالآلة الموسيقية بين يدي موسيقي عبقري. كانت تعرف أن رجلها الكامل ليس من يشبع أتفه رغباتها لحظة أن تبرز إلى الوجود، ولكنه من يتنبأ بها ويدلها عليها. ويعرف كل إجاباتها دون أن يسأل سؤالًا. ولا يتكلم كثيرًا، بل يحس كل شيء، ويفهم كل شيء، ولا يلومها إلا عندما تحتاج أن تشعر بالإثم. وأصغت بانتباه إلى صوت زائرها الخفيض:

– نحن مواجهون الآن بأمر لا مفر منه. فقد ملأني فومين مادة نفسية معينة، وخرجت إلى حيز الوجود، وفي لحظة إدراكي هذه، شعرت أن أفكارًا طارئة وخصائص تنفذ، إليَّ من الخارج، تناقض ما في ذاتي. ورغم أني تبينت أن هذا يشوهني، إلا أني عجزت عن استبعاده؛ لأنه حتى ذلك الحين لم تكن لدي غريزة حقيقية للحياة، وخيم على فومين فيض كثيف من المادة «النفس– جسدية»، وهي كما تعرفين جامدة ومطاطة أيضًا، حتى أنه كان يمكنها أن تدمرني لو حاولت أن أسبر وعي فومين.

فحدثت المرأة نفسها قائلة:

– هذا ممكن، إن هذا المخلوق ليس كائنًا إنسانيًّا كاملًا بعد، إنه جنين فقط، وربما أستطيع إكماله بمنحه ما يحتاجه الرجل الكامل. فلم يكن عمل بيجماليون أصعب منه.

وأغمضت عينيها، تصغي إلى صوت فولكوف الجلي الذي لم يقطع عليها سلسلة أفكارها، ولم يعق أصواتًا أخرى، فلم يمنعها سماع الراعي كيركا وهو يلعب الأكورديون في القرية، وغناء البنات والكلاب مقعية في ضوء القمر، القمر الممتلئ المنير كشمس لطفت أشعتها.

– ولا يمكن الآن أن أدرك كم أنا مدين لخالقي فومين، وكم أنا مدين للشخصيات الأخرى التي خلقها ومزجها بي. أشعر ببعض أفكاره في داخلي، أفكار لا علاقة لها بي كبطل لروايته أو للرواية

عامة. ولقد أخبرتك أن فومين صورة مصغرة لمستشفى مجاذيب، أو، إذا شئت، هو طريق عمومي تهيم فيه دائمًا مختلف الشخصيات، تنبعث منها بلا انقطاع خواطر وأفكار متناقضة يستبعد بعضها بعضًا. والآن، لا أقدر أن أصدق أن الطبيعة لا تعرف ما تريد، وأنها تخلق قدرًا كبيرًا من القبح وهي قادرة على أن تخلق أي شيء. هذه أحد مبادئ فومين التي لا فائدة فيها لي، ولكن لعل السبب أني خلقت كي أكون حاملًا لتفاهات سخيفة. ولا أعرف حتى نقط البداية، هل أقدر أن أكون طيبًا أم وغْدًا؟

فمدت له يدها، وهي تبتسم قائلة:

– هذا بالضبط ما يجب ألا تعرفه، فكل أهمية حياتك ومعناها تكمن في ذلك، أي أنك رجل يجب أن يسيء التمييز بين الخير والشر.

فسألها بارتياب وهو يشد زرارًا في معطفه القطني:

– أتظنين ذلك حقًّا!

– أجل، هكذا أفهم دورك في القصة. فلو عرفت الخير من الشر لكانت الحياة بالنسبة لك مللًا مخيفًا، فهذه الطريقة أكثر فائدة.

وفكر فولكوف في قولها، متحيرًا بعض الشيء، ولم يكن من الطبيعي ألا يتناول يدها كما لا بد أن يفعل أي رجل آخر. قال:

– أجـــ..... ل. ولكن مفيدة لمن؟

– لي ولك. وللقارئ أيضًا...

- إيه! القارئ؟

ومر بيده على شعره وعينيه، وقال وهو يهز رأسه مبتسمًا:

- ألا تظنين أن هذه لعبة قاسية؟ فكري فقط في أننا خلقنا لنقاسي ما لا آخر له من الشقاء، كالـ- أرجو المعذرة- كلاب لنخلق مواقف مؤسية، ليتسلى القارئ الذي قد يكون بالمصادفة ضجرًا. ليس من الحكمة في شيء أن يتعذب البعض ليتسلى الآخرون؟ قد تكون هذه فكرة فومين لا فكرتي. ولكني أؤكد لك أنها فكرة وجيهة! إنه على العموم ودود وليس دعيًّا، وتلك علامة مؤكدة على اللطف. أذكر أنه أحيانًا يلقي ريشته ويسأل: لماذا أفعل هذا؟ لماذا أكتب؟ إنه هو نفسه لا يحب التألم، فهو بغيض إليه، ولكن، لسوء الحظ، ليس أمام الفنانين مادة أخرى غير العذاب...

فأدنت المرأة كرسيها منه، وسألته:

- أخبرني، كيف محوت ظلك من المرآة؟

ولكنها شعرت في الحال شعور الصائد الذي تفلت منه بندقيته على غير انتظار، ورغم إرادته، وارتبكت فوضعت يدًا رقيقة على ذراع زائرها، وقالت:

- لا تغضب.

وارتأت أخيرًا أن تعامله بحرص وارتياب؛ لأنه لم يكن موجودًا في الواقع. كانت نفسه الفيزيائية موجودة، أما جوهره فلا، أي ما يمكن

تسميته «روح- فوفين»، لكأنها طمست بذهنها ألوانًا متعددة. ولم يكن رجلًا، بل مسرحًا متحركًا تقمص مديره وممثلوه شخصية واحدة. إنه رجل مثير بالطبع، ولكنه خطر، وغير ثابت.

وابتسمت المرأة ناظرة إلى الحديقة، مغتبطة بالفكرة التي أشرقت في ذهنها فجأة وهي: أنه من المستحيل عليها بالطبع أن تحب مجموعة رجال في وقت واحد، وإن يكن الاستسلام لكثيرين في واحد مثيرًا. كما أنه على المرأة ألا تحب كاتبًا إذا أرادت ألا تفسد نفسها. ولكن كان على هذه الفكرة أن تتلاشى حالًا ليعقبها إحساس بالدهشة البالغة.

فقد كانت تنظر تجاه الحديقة، وعيناها نصف مغمضتين، فرأت، بين أغصان أشجار البلوط، أشباحًا محددة المعالم تحت الشمس الأرجوانية ورجلًا جلس على المقعد في حلة بيضاء وقبعة من القش، يلعب بعصاه.

ترى من يكون؟ فالجميع قد رحلوا، ويرتدي حلة بيضاء أيضًا، في هذا الوقت من العام! بالتأكيد، لقد ذهب جميع أصدقائها. ولكن من الواضح البغيض أن واحدًا لم يذهب. أيكون غريبًا دخل الحديقة ليمتع نفسه بمشاهدة انعكاس الشمس على مياه البركة؟ لكن لماذا يرتدي حلة صيفية؟ ها هو ذا هناك، يخط بعصاه أشكالًا على الأرض. وخيل للمرأة أنها سمعت تكسر الأوراق الجافة، وقررت أن ترسل خادمتها تسأل الغريب من يكون؟

وفي نهوضها «زيأ» المقعد بصوت عالٍ مزق السكون، ولكن لم

يبد أن الرجل سمعه. ونزلت الدرجات إلى الأرض الرطبة وسارت في الممشى، فلاحظت أنها تقترب منه بسرعة زائدة، ولكنه لم يكبر أو يتضح عما كان عن بعد. لقد كان، ولا شك، خيالًا من خيالات الغسق. ولكن الأغرب أنه، رغم الأشعة الأرجوانية التي تنصب عليه من الشمس المحتضرة، لم يلق ظلًّا، والأوراق التي يعبث بها بعصاه لا تحدث صوتًا.

وشعرت كأنها ألقيت في أحضان قوة خفية ترنحها في فالس بطيء.

ونهض الرجل لمقابلتها نازعًا قبعته بأدب، وإن يكن قد بدا عليه شيء من الارتباك، وانحنى، وسألها بصوت خفيض مبحوح:

- أرجو المعذرة، ولكن أهذه أنت؟

كان حديث السن، رشيقًا في ملبسه، ولكن لا لون له، ذا وجه طويل، جاف، وعينين زرقاوين، وذقن صغيرة كتانية، وثمة شيء متكلف، زجاجي في تقاطيعه الجامدة. لم يكن يشبه أحدًا من أصدقائها، وإن أحست أنها قابلته من قبل.

أجابته ضاحكة:

- أي سؤال غريب؟ بالطبع أنا هي.

فرد عليها بابتسامة آلية، ودق وجهه وقال:

- أنت إذن المرأة التي عليَّ أن أقابلها.

فنظرت إليه بإمعان، لقد رأت عينين مثل عينيه في الصور. واحتاج الأمر إلى مجهود من الخيال لتصدق أن فيهما حياة. كان واضحًا أن الرجل مرتبك. وخطر لها أن في الأمر لغزًا، إنه بلا شك أحد أصدقاء زوجها الغامضين، أو فيرا إيفانوفنا، المختفين عن أعين البوليس. ولكن، أي تنكر سخيف!

فسألته:

– هل أتيت من عند فيرا إيفانوفنا؟

فأجاب متسائلًا:

– أهي أيضًا، في الرواية؟

– ماذا تعني بقولك في الرواية؟

فهز الرجل رأسه قائلًا:

– لا أذكر امرأة بهذا الاسم فيها؟

– في ماذا؟

– في الرواية.

فخطر لها أن به خبلًا، وأحكمت وشاحها حول كتفيها، وسألته بجفاء:

– أعرف عن أية رواية تتحدث، ولكن أظن أن لي حق سؤالك عمن تكون؟

فنظر إليها متعمدًا، وعبرت عيناه اللتان تبدوان كأنهما مدهونتين على صفحة وجهه، عن دهشة واضحة، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة، وأحنى رأسه موافقًا:

– من حقك طبعًا. وأظن أن الرواية تبتدئ في هذه اللحظة بالذات، وفي هذه المقابلة. كما أظن أن المؤلف قصد أن تبتدئ الرواية هكذا، فتعامليننى أول الأمر باشتباه، وعداء، ثم... حسنًا، لا أعرف، ولكن بالنسبة لي مأساة.

«أجل إنه مخبول» هكذا كان تعليقها الصامت وهي تصغي إلى كلماته التي لا لون لها، وتراقب وجهه الذي بدا أكثر حياة وأقل استطالة. أما هي، فكانت تحس خدرًا كأنها توشك على النوم، ولكنها كانت مهتمة وراغبة في سماعه دون أن تقاطعه.

– إن الذي أدهش له هو أنك تسألين عن الرواية!

واستطرد:

– أخبريني، أتحاولين تضليلي؟ أتحاولين؟ أأنت هي المرأة؟ هل لك صلة بفومين، أو بالأصح، بروايته. أليس كذلك؟

فصعب عليها أن تكتم ضحكة، لقد فهمت الموقف الآن. آه، إنه فومين إذن! فهو يعلم أني بمفردي، ولا يستطيع زيارتي، ولذلك دبر هذا المقلب!

فأجابته مبتسمة:

– أجل، أعرف الرواية، ولكن ماذا عنها؟

فازداد الرجل حياة، وقال:

– إذن كل شيء على ما يرام، ولكن لم أظن أبدًا أن الأمر سيكون عسيرًا...

فقاطعته قائلة:

– الجو يزداد رطوبة، ألا ندخل؟

فانحنى الرجل شاكرًا، وهو لا يزال يبتسم ابتسامة غريبة كأنها تأتي من الخارج لا من داخله. وخطا في حذائه الأبيض خطوة خفيضة خفيفة عجيبة، فلم تتكسر تحت قدميه ورقة واحدة، ولكن الأغرب من كل هذا، أنه كان بلا ظل، بينما كان ظل المرأة طويلًا محددًا بوضوح.

وساءلت نفسها: «كيف استطاع أن يزيل ظله»، وهي تراقبه بزاوية عينها، وسألته:

– هل رأيت فومين من قريب؟

– من حوالي سنتين.

فحدثت نفسها قائلة: «أي حاسة مزاح ضئيلة لديه!» ثم قالت بصوت مرتفع:

– إنك ترتدي ملابس خفيفة بالنسبة للفصل.

فأجابها وهو يهز كتفيه استخفافًا:

– لماذا؟ تلك غلطة فومين.

وأحست بالتعب والملل، وسألته مرة أخرى:

- على أية حال، من أنت؟

واندهش الرجل مرة أخرى، كما حدث عقب سؤالها عن فومين. وضحك ضحكة كريهة مصطنعة، وهو يضرب الهواء بعصاه، دون أن تسمع صوتًا، وقال:

- كم هو غريب أن تسألي ذلك! هل نسيت؟ دعيني أذكرك: أنا بول فولكوف، ابن مهندس، وأنا أيضًا مهندس معماري، وشخص عاطل، فاشل في الحياة. عمري إحدى وثلاثين سنة، وثري. من ستة أعوام تزوجت عن حب، وبعد أربعة أعوام هجرتني زوجتي، تاركة قصاصة مكتوبة بالرصاص: «سامحني يا بول، ولكن الحياة معك لم تعد ممكنة» إنها تعيش الآن في مكان ما بالقوزاق، ولكني موقن أني لن أستطيع مقابلتها مرة أخرى. وأنا لست شخصية إيجابية... ذلك كل ما أعرفه عن نفسي. أما الباقي فلم يكتب بعد، لم يخلق...

كان يلقي حديثه كأنه يقرأ جواز سفر، ولم تتبين المرأة إلا قرب النهاية أن في حديثه شيئًا من الاضطراب والثورة.

وكانت هي أيضًا مضطربة بعض الشيء وهي تفكر في نفسها: «إنه لو لم يكن مجنونًا لم يتصور نفسه بطل رواية فومين الفاشلة، فإنه لن يكون إلا غبيًّا معدوم الخيال». وفيما هما يصعدان الدرج إلى الشرفة، التفتت إليه قائلة:

- كيف استطعت أن تمحو ظلك؟

فتساءل مندهشًا:

– فيم يفيدني الظل؟ إنك لا ترين ظلالًا في الأحلام، أترين؟ وكل هذا شبيه بالحلم.

– ما الشبيه بالحلم؟

– وجودنا نحن، أعني وجود الناس المخلوقين لتسلية الناس الموجودين حقيقة.

نطق هذه الكلمات ببساطة زائدة جعلت المرأة تشك في فكرتها عنه قائلة في نفسها: «قد أكون مخطئة، إنه ممثل رشيق ماهر، ولذلك فالمعقول أن يكون فومين أرسله إليَّ».

ولكن يدها لم تلمس إلا غطاء مائدة مشغول. وضايقها هذا وانتابها الخوف وهي تسمع صوتًا يتكلم في نبرات غاضبة، ويقول:

– أهكذا أنت، امرأة عادية حقيقية من لحم ودم؟ لم هذه التعمية؟

ونهض فولكوف، وحرك قبعته حركة غريبة، وأعاد في دهشة غاضبة:

– ما معنى هذه التعمية؟

وتحرك نحو السقيفة ووقف دقائق قليلة عند العتبة متأرجحًا في ضوء القمر:

قالت وهي تقترب منه ببطء:

– انظر إليَّ. هذا بعيد عن التصديق، لا شيء سيقنعني أنك...

وفي سيرها تبينت لأول مرة أن الأرض تدور حول محورها حقيقة، بسرعة سخيفة لا مبرر لها.

– القراء حقًّا!

قالها فولكوف مبتعدًا، وكان من الواضح أنه حمّل كلماته معنى مهينًا منحطًّا. ووضع عصاه تحت ذراعه، وتناول قفازين من جيبه، وارتداهما كما يفعل ممثل إقليمي يقوم بدور بطل مهان. وكان شكل فولكوف الأبيض يبدو في ضوء القمر الخداع كشبح أخضر. وغمر ضوء القمر البركة، ومجموعة أشجار البتولا، حيث اختفى بين جذوعها الفضية. كان يجب أن تدعك عينيها، ففي أمثال هذه المناسبات يعمل كل إنسان ذلك.

ولا أعرف مؤلفًا جرؤ على حذف هذا. وكان يجب أن يكون كل شيء ساكنًا، عدا الكلاب التي تعوي بلا انقطاع. والساعة تدق الثانية عشرة، وتنعب بومة مرة أو مرتين. ولكني لن أخبر القارئ عن أشياء لم تحدث. فأنا، كما يعرف الجميع، واقعي عنيف في واقعيتي. والحقيقة الوحشية القاسية لقصصي يعرفها جميع النقاد، أو يعرفها كل من يستطيع القراءة على الأقل. أما الذين لم يعرفوا القراءة بعد فيتفقون مع غيرهم في تقديرهم لفضائلي ونقائصي، وخاصة نقائصي. وأنا شخصيًّا مقتنع أن هذه النقائص تزداد بثبات ومعقولية، وأنه لن يمضي طويل وقت حتى أصل إلى سجن الكمال. هذا، على أية حال، متروك للمستقبل. أما الآن، فإن مشكلتي هي كيف أنهي قصتي. وليس هذا

صعبًا فيما أعتقد والآن:

تنهدت المرأة، وهي تنظر إلى بعيد، هناك خلف سطح البركة المستدير اللامع، تقوم الغابة أشبه بجفن هائل أشعث. ليست صورة سيئة، ولكنها غريبة، فالبرك، والبحيرات، والبحار، بدت لي دائمًا أشبه بعيون الأرض، ففي شبابي الذي هوى في غياهب الزمن، ولا أعيه إلا بالذاكرة، كتبت قصيدة مطلعها:

يا أرض قلبي، إنك تنظرين

بأعين المحيطات الزرقاء

إلى أخواتك النجوم الذهبية في السماء الزرقاء

آه، الحنين في أعين المحيطات

هو تألق النجوم في ليلة زرقاء

وهكذا وهكذا... كانت أبياتًا شديدة الزرقة. على فكرة- ذلك للنقاد- كما أني استعرت الموازنة بين الأرض والنجمة، من فيكتور هوجو. ولكن دعينا نستمر:

وفوق الغابة المعتمة كانت ثلاثة نجوم تسبح ببطء في السماء، تبينت المرأة فيها الثريا، مع أن السماء كانت خالية من النجوم؛ فقد حجب ضياء القمر المسروق إشعاع النجوم الشريف. ولعل تشبيهًا كهذا ملائم الآن وإن كان فيه إهانة عظيمة للبعض وفائدة كبرى لآخرين، ولكني لن أذكره، وإلا قادني بعيدًا عن موضوع القصة التي يجب إتمامها.

أغلقت المرأة باب الشرفة بهدوء، وعادت إلى حجرتها الظاهرة الأناقة والترف، إلى العش الذي اعتادت أن تفقس فيه كتاكيت تهويماتها. ووقفت أمام المرآة وهي تدعك خديها الباردين براحتي يديها، ونظرت بعينيها المستديرتين في خوف وحيرة كأنهما غريبتان، ولم يمكنهما تصديق أن هذه هي المرأة الأنيقة التي تعودتا تجميلها...

وحدثت نفسها بصوت مهموس:

– لا يمكن أن يكون رجلًا، فلو كان... لماذا أعود إلى التفكير فيه، وقد أهانني!

وجلست إلى مائدة، تربت جوربًا على ساقها المتناسقة، وظلت في مكانها تعبث بمقص أظافرها وقتًا طويلًا، ثم شرعت تطلي أظافرها، والتفكير ميسور دائمًا وأنت تطلي أظافرك. إنه من المؤسف حقًّا أن «كانط» لم يكن يعرف شيئًا عن هذا. وتزاحمت الأفكار في رأسها، مشوشة مضطربة أشبه بنثير الغبار في شعاع من نور الشمس. ولكنها أبغضتها كلها، وكان عليها أن تبذل جهدًا كبيرًا لتوجه أفكارها نحو فومين.

«عزيزي أنتيب تيتيش! من ربع ساعة مضت خبرت تجربة عجيبة، مجنونة. إن كانت لديك نعوت أقوى فلتستعملها، ولكنها لن تعبر بعمق كافٍ ودقة عما عانيته. أتعرف من زارني؟ إنه بول فولكوف، بطل روايتك، الرجل الذي تكلمت عنه جيدًا وكثيرًا. ولم أستطع وقتها، كما ستذكر، أن أكوِّن صورة واضحة عنه. لا تظنن أني رأيت

رجلًا حقيقيًّا يشبهه، لا، إنه بول نفسه، مخلوقك، وأرجو المعذرة إذا قلت إنه بعيد الشبه عن أي كائن إنساني، لقد قال إنه تجسيد لقدرتك الخالقة، ورغم أنه على صورته إلا أني تحيرت: فهو من الخارج يشبه رجلًا، أما عن روحه- حسنًا، إنه بلا قلب. لكأنه لم يكمل بعد. فهو عاجز حتى عن الاستسلام لانفعالات الرجل السوي الجنسية. وهو مكسو بعناية، ولكنه ثقيل الظل، فظ.. وكان يشكو من أنك بعد أن خلقته نسيته. وأعلمني أنه سيعيش مستقلًا معتمدًا على القوة التي منحته إياها ناقصة. هكذا فهمت بطل روايتك.

أرجوك ألا تظنني مجنونة، أو سريعة الهلوسة، فلست من هذا في شيء، وسيثبت قضائي هذه الزيارة الغريبة في كامل قواي العقلية، اتزاني العقلي. إن بطلك باختصار لا ينتمي إليَّ، إني واثقة أن رجلًا كهذا بطل لقصتك «تؤدي بها إلى الفشل، أهناك ما يهم في حياة شخص غير مهم؟ إن فولكوفك هذا جامد تمامًا، فعليك بإعادة كتابته. على كل حال عليك أن تمنع هيامه في العالم كالشبح، فهو قد أتى إليَّ اليوم وقد يأتي إلى غيري غدًا، إنه يبحث عن امرأة كما كان ديوجين يبحث عن رجل».

وتوقفت عن الكتابة، تشك فيما إذا كانت أضافت أهمية كبرى إلى الأمر، أو بخطابها بعض السخف. ولكنها حزمت أمرها قائلة: «لا، سأقف به عند هذا الحد، فهو أكثر أهمية هكذا». وكتبت وقتًا طويلًا، وقد تملكتها رغبة في محو فولكوف. فأي فائدة فيه؟ بل ما فائدة كل

شخصيات القصص الكريهة الناقصة الوجود؟

وبعد أن أودعت أحاسيسها في عدة عبارات، دعت خادمتها وأمرتها أن تحل قيود النوافذ، وتقفل الباب المؤدي إلى الشرفة جيدًا، وأضافت قائلة:

– ستنامين الليلة في الحجرة المجاورة يا كلاشا، فأنا متوعكة قليلًا، وقد أدعوك في الليل.

ثم خلعت ملابسها، واستلقت في سريرها، وأغمضت أجفانها وهي تحاول أن تصور لنفسها حال فومين عندما يتسلم خطابها.

ووصلها جوابه بعد أيام قليلة:

«لقد قرأت خطابك الساحر الجميل في هذه الليلة الممطرة الكئيبة. والحجرة باردة كقلبي. لقد عدت لتوي من حفلة على قدمي، والمطر ينقر مظلتي بلا انقطاع. ولقد كنت أفكر فيك فكتبت بضعة أبيات، ليست جيدة طبعًا، ولكن صدقيني إنها مخلصة:

أرى قدامي رؤيا غريبة،

وحدي أذرع طريقي في الدنيا،

وشقائي يتبعني كظل من،

الرصاص، ثقيل.

لن أبوح بأحزاني لأحد،

بل سأكتمها في قلبي،

الذي يمزقه الصراع الأبدي،

ويضنيه الإحساس الغامض بالحياة.

فليس في مقدورهم أن يخففوا عني،

وليس في مقدوري أن أخفف عنهم،

ولن يسيئوا الظن بي؛

لأني أصدقهم القول،

وعاجز عن مشاركتهم

سلواهم أو يأسي.

ولكني وأنا معك، معك وحدك

أبوح بألمي والابتسامة على شفتي

فابتسمت.. فقد نسي فومين أنه في الربيع الفائت تلا عليها نفس هذه الأبيات وهما يتنزهان وحدهما في قارب بجوار شاطئ النهر، ولعله نسي أيضًا: أنها كانت ثائرة تلك الليلة، وأخبرته أن شعرًا كهذا قد يحلو في مناسبة غير هذه.

أما بقية خطاب فومين فكان كالآتي:

«وفي عودتي، وجدت خطابك، يفيض غرابة، وصداقة أصبو إليها محتاجًا، ويكشف عن اهتمام جدي بعملي. شكرًا لك. فقد أعدت إلى ذاكرتي تلك الرواية المؤسية وقتلت بطلي إلى الأبد، فقد تناولت

المخطوط، وأعدت قراءته، واحمررت خجلًا، ومزقته قطعًا صغيرة. ولن يعود بول فولكوف إلى إزعاجك ثانية».

وغير هذا كتب كل ما يكتبه رجل لامرأة يتحرق لنيلها. وفي أمثال هذه المناسبات لا مفر من الملق، ولكن يحدث أحيانًا أن يصدر مخلصًا.

وانتابها التفكير، وتطلعت من النافذة إلى الحديقة، حيث تشع شمس الخريف الجافة، وعوت الرياح، وتناثرت الأوراق الصفراء على الأرض.

هذه في الحقيقة هي نهاية القصة.

ولا أعرف ما فعلته المرأة بعد ذلك، ولكني أظن أنها كتبت لزوجها قصاصة تقول: «سامحني يا بول، ولكني لم أعد أحتمل الحياة معك» كما أني أيضًا لا أعرف شيئًا عن زوجها. يحتمل أنه أحد تلك الكائنات القليلة الذين لا تتركهم النساء إلى غيرهم. ويخيل لي أن الذين من هذا النوع يجب أن يكونوا صمًّا، عرجًا، لا ينطقون، ودميمين أيضًا، أو من التعاسة والأسى بحيث لا يجد شقاؤهم مجالًا للزيادة.

يجب أن تنتهي هذه القصة بوصف شاعري للدنيا، ولكني لن أكتبه، فالأفضل أن تنتهي عند هذا الحد.

* * *

صرخة عذاب

كان أحدهما يدعى الأعرج والآخر وديد، وكلاهما يحترف السرقة مهنة.

كانا يعيشان في ضاحية منعزلة خارج المدينة تقع في وادٍ ضيق بين جبلين، ويأويهما كوخ شيد من الطين والخشب العفن التالف يبدو كأنه كومة من القاذورات ألقيت في هذه الهاوية. وكان الزميلان يقومان بنشاطهما في القرى المجاورة، فالسرقة عسيرة في المدينة، والضاحية ليس بها ما يستحق السرقة.

وكلاهما تبدو عليه الريبة والطيبة، وكانا إذا سرقا قطعة قماش، أو معطفًا، أو بلطة، أو شريحة من اللحم، أو قميصًا أو دجاجة يغيبان زمنًا عن القرية التي استلبا منها غنيمتهما. ولكن الفلاحين كانوا يعرفونهما، ويهددونهما بالضرب حتى الموت إذا ضبطوهما متلبسين. ولكن الفرصة لم تسنح، وسلمت عظام الصديقين رغم توالي التهديد عليهما ست سنوات بأكملها.

والأعرج يناهز الأربعين، طويل، يشوب قامته عوج بسيط، ونحيل، لكنه قوي، يسير مطأطئ الرأس، ويداه مشبوكتان خلف ظهره، بطيء الخطى، لا يفتأ يتلفت حواليه قلقًا مرتابًا، بعينيه الحادتين المتوحشتين، ويقص شعره ويحلق ذقنه، ويغطي شاربه الكثيف العسكري فمه، ويكسب وجهه مظهر القوة والجفاء. ويبدو أن ساقه اليسرى قد كسرت أو أصابها ما نقلها عن موضعها، وأصلحت بطريقة سريعة جعلتها أطول من أختها، فإذا خطا بها شقت الهواء بشكل نصف دائري، ولذا دعاه الناس بالأعرج.

وكان وديد يكبره بخمس سنوات، أقصر منه، وأعرض منكبًا. ولكن يلازمه سعال متصل جاف، وتحجب وجهه ذقن كثة صفراء وخطها الشيب، لا تخفي ملامحه المريضة الصفراء. وعيناه واسعتان، ترمقان كل شيء بنظرة ودودة تلتمس السماح. وأثناء سيره يضم شفتيه على شكل قلب، ويصفر لحنًا رتيبًا حزينًا لا يتغير أبدًا. ويستر منكبيه دثار قصير ممزق. أما الأعرج فكان يرتدي قفطانًا رماديًّا، ذا حزام.

كان وديد في نشأته فلاحًا، وزميله أمين كاهنًا، ولكن الحال انحدرت به فجأة إلى أفَّاق ولص.

وكانا لا يفترقان أبدًا. ويقول الفلاحون إذ يرونهما معًا:

– ها هما الصديقان قد ظهرا ثانية! فلنأخذ حذرنا.

وكان هذان الصديقان يسيران الهوينا في الطريق، متوجسي النظرات متحاشيين أعين الناس.

ووديد يسعل يصفر لحنه، بينما رجل زميله تهتز في الهواء، كأنها تحاول انتزاع نفسها والبعد عن طريق صاحبها المحفوف بالأشواك. وكانا يستلقيان أحيانًا عند مدخل الغابة، في الدريس، على الأرض، يدبران معًا سرقة شيء يقيهما الموت جوعًا.

* * *

الشتاء عسير حتى على الذئاب التي هي أحدّ نابًا، وأمضى مخلبًا، وأقسى قلبًا من الإنسان.

فالذئاب في الشتاء تقتحم الطرقات هزيلة جائعة، مفترسة، ويخشاها الناس ويخافونها.

فهي قد زودت بالأنياب والمخالب لتدافع عن نفسها، وفوق هذا وذاك، فقلوب الذئاب لا تعرف طريقًا إلى الرحمة. وهذا أمر على جانب عظيم من الأهمية؛ لأنه إذا أراد الإنسان الانتصار في ميدان الصراع على البقاء، يجب أن يكون إما حاد الذكاء أو حجري القلب.

كان هذان الصديقان يقاسيان الويل شتاء. فكثيرًا ما اضطرا إلى التجوال في الشوارع مساء متسولين، محاولين الابتعاد عن أعين الشرطة، فالسرقة متعذرة شتاء؛ لبرودة الجو وعصف الرياح، والآثار التي يتركها وقع الخطى على الجليد، وعبث السطو على القرى حيث كل شيء محكم الإغلاق، فتنهار قواهما وتضعف مقاومتها للجموع، ولعل أحدًا لا ينتظر الربيع بفارغ الصبر مثلهما.

وأخيرًا يقبل الربيع بعد طول الانتظار! فيخرج الزميلان من كوخهما في الوادي الضيق، وقد أنهكهما الجوع وأملهما الانتظار، يرسلان النظر فرحين إلى الحقول الخضراء، ويشاهدان الجليد وهو يذوب يومًا بعد آخر، وتعود للظهور الأرض السمراء، وتشع البحيرات في نور الشمس كالمرايا، وتدب الحياة في الأنهار، ويسمع صرير أمواهها الصافي. وتسكب الشمس أشعتها النقية على الأرض، فيستدفئ بها الصديقان، وهما يحلمان بوقت تجف فيه الأرض تمامًا، ويتمكنان من «العمل» في القرى. وكثيرًا ما أيقظ وديد المريض صديقه في الصباح الباكر، قائلًا، والفرح يغمره:

– هيا! أفق! لقد أقبلت الغربان.

– أحقًّا ما تقول؟

– صدقني. ألا تسمع صياحها؟

ويبرزان من كوخهما، ويراقبان رسل الربيع وهي تبني أعشاشًا جديدة، وترمم القديم منها، مالئة الجو بصيحاتها العالية القلقة.

ثم يقول وديد وهو يصلح كوخه القديم العفن:

– وحانت عودة «القنابر».

وتقبل القنابر، فيذهب الصديقان إلى الحقول، ينصبان الشباك على الأرض الموحلة السمراء، فتسقط في شباكهما الطيور الجائعة التي أجهدها كفاحها الطويل وبحثها الشاق عن الطعام على الأرض

التي تخلصت لتوها من أسر الجليد. وكانا يبيعانها بعد صيدها بخمسة أو عشرة كوبكات، ثم تظهر حشائش القريض فيلتقطانها ويأخذانها إلى السوق ويبيعانها للنسوة اللائي يتاجرن في الأعشاب الطبية. كان كل يوم من أيام الربيع يبعث إليهما جديدًا، وشيئًا يزيد دخلهما وإن كان ضئيلًا. فقد كانا يعرفان كيف يستفيدان من كل شيء، وينتهزان كل فرصة، فكان الصديقان يذهبان إلى حيث يتمرن الجنود، وينتظران حتى ينتهي إطلاق النار ويبحثان عن الرصاص الفارغ الذي يبيعان الرطل منه باثني عشر كوبكا. ولكن رغم أن كل هذه الأعمال كانت ترد غائلة الجوع عنهما، إلا أنها لم تدع لهما يومًا تجربة «الشبع»، والغبطة بمعدة ممتلئة، تمارس هضم ما تحويه من طعام.

* * *

وذات يوم من أيام أبريل، وبراعم الأزهار لم تتفتح بعد، يكتنفها الضباب، والأعشاب الطرية تأخذ طريقها إلى سطح الأرض في الحقول السمراء المشمسة، كان الصديقان يسيران في الطريق، يدخنان سجائر رخيصة، صنعاها بأيديهما، ويتحدثان.

قال الأعرج محذرًا لزميله:

– إن سعالك يزداد سوءًا.

– لا أبالي! فسوف تدفئني الشمس، وأسترد صحتي ثانية.

– صه! ربما كان الأفضل لك أن تذهب إلى المستشفى.

– هراء! وما حاجتي إلى المستشفى؟ مرحبًا بالموت وقتما يقبل.

– مضبوط.

كانا يسيران في غابة من أشجار البتولا، تلقي عليهما الأغصان ظلالها الصغيرة. والعصافير تقفز على جنبات الطريق وتغني فرحة بالربيع.

قال الأعرج بعد صمت قصير:

– إنك لا تسير كعادتك.

فأوضح له وديد الأمر، قائلًا:

– ذلك لأني أكاد أختنق، فهواء الربيع ثقيل معبق بالروائح، يعسر عليَّ استنشاقه.

وساد السكون بينهما فترة، ثم انتابت وديد نوبة سعال حادة، ارتجف لها جسمه كله، وشرع يدعك صدره بيديه، وقد علت وجهه زرقة شديدة.

قال بعد أن انقطع سعاله:

– وعلى أية حال، فالسعال ينظف رئتي.

واستمرا في سيرهما، والطيور تهرب من أمامهما. ثم قال الأعرج وهو يرمي عقب السيجارة بعيدًا، ويبصق:

– نحن في طريقنا إلى موفينا، وسندخلها من الخلف، فلعلنا نعثر على شيء، ثم نذهب إلى كزنشيخا عبر غابات سيفتسوفا... ومن هناك

نرتد إلى مركوفكا، ثم إلى منزلنا.

فقال وديد:

- هذا يعني أننا سنقطع ثلاثين فرسخًا.

- وقد نعود كما ذهبنا.

كان على يسار طريقهما غابة مظلمة يخشى الناس دخولها، فهي كثيرة الأشجار كثيفة الأغصان تسرح فيها الحشرات. وأبصرا بمُهرة تعلوها «بردعة» قديمة مهلهلة ترعى الأعشاب عند حافة الغابة، أضلاعها بارزة ناتئة كألواح البرميل. فتوقف الصديقان مدة يراقبان المُهرة وهي تنقل أقدامها وتحني معرفتها إلى الأرض؛ لتلتقط الأعشاب الذابلة بشدقيها وتقضمها بأسنانها الصفراء.

فقال وديد:

- إنها هزيلة مثلنا.

فصاح الأعرج:

- هيه... هيه.

فتطلعت إليه المهرة، وهزت رأسها، ثم انحدرت بها إلى الأرض.

ففسر وديد حركة الحصان المتعبة، قائلًا:

- لم يعجبها منظرنا.

فقال الأعرج وقد بانت عليه دلائل التفكير:

– لنسرع، فلو أخذناها إلى التتر.. فربما أعطونا ما يقرب من سبعة روبلات ثمنًا لها.

– لا، لن يعطونا شيئًا! فما فائدتها لهم؟

– وما رأيك في البردعة؟

– البردعة! وهل يعطونك هذا المبلغ الجسيم إكرامًا للبردعة؟ لن يعطونا غير ثلاثة فقط.

– ولكن، انظر إلى البردعة، إنها خرقة قديمة.

ونظر الأعرج إلى زميله ثم قال بعد فترة صمت:

– اتفقنا.

فقال وديد متوجسًا:

– قد تنتج عن هذا مشاكل كثيرة.

– لماذا؟

– سنترك آثارنا خلفنا.. فالأرض لم تجف بعد... وسيهتدون إلينا.

– يمكننا وضع قطع من قماش حول أقدام الحصان.

– كما تشاء.

– هيا بنا! لنسحب الحصان إلى الغابة وننتظر حتى يقبل المساء، فنسوقه بعيدًا إلى التتر، وهم لا يبعدون عنا إلا ثلاثة فراسخ.

فوافقه وديد قائلًا:

– حسنًا، لنذهب، عصفور في اليد، كما تعرف... ولكن ماذا لو...؟

فقال الأعرج موقنًا:

– لن يحدث شيء.

وتركا الطريق، ودلفا إلى الغابة، وتطلع إليهما الحصان وهما يقودانه، وصهل، وهز ذيله، ثم سار معهما وهو يلتقط الأعشاب.

* * *

كانت الغابة تقوم على جانب وادٍ ضيق بين جبلين يسودها الظلام، والبرودة، والسكون الذي لا يعكره إلا صرير مياه النهير، وهو ينساب حزينًا رتيبًا كالنحيب. وأغصان الأشجار العارية المثقلة بالجليد تتعلق بجانب الوادي المنحدر، وهنا وهناك تبرز من الأرض الجذور التي غسلتها أمطار الربيع، مبثورة، ميتة. كانت الغابة لا حياة بها، وحمرة المساء تزيدها مواتًا وجمودًا، والسكون الناحب الذي يسودها يخلع عليها هدوء الجبانة المشئوم الحزين.

وجلس الصديقان طويلًا في العتمة الباردة الساكنة، في ظل كتلة من الصخر تدحرجت إلى قاع الوادي.

وأشعلا النار أمامهما، وأخذا يلقمانها الأغصان، وهما يدفئان أيديهما فوقها؛ حتى تشتعل ولا تدخن. ووقف الحصان قريبًا منهما. وكانا قد عصبا عينيه بكم انتزعاه من أسمال وديد، وقيداه من لجامه

إلى جذع شجرة.

وكان وديد الذي أنعشته النار ينظر إليها مفكرًا وهو يترنم بلحنه في صوت خفيض، بينما انهمك زميله في صنع سلة من الأغصان.

كان صرير النهير الحزين ولحن الرجل التعس الخافت يذوبان في نغمة واحدة، تطفو في سكون الماء والغابة، ومن حين لآخر تئن الأغصان وتزفر وهي تحترق، كأنها ترثي لهذين الرجلين اللذين فاقت تعاستهما هذا المصير الأسود بين اللهيب.

سأله وديد:

- هل سنرحل سريعًا؟

فأجابه الأعرج دون أن يتوقف عن عمله:

- ما زال الوقت مبكرًا، انتظر حتى يدلهم الليل، فلنرحل.

فتنهد وديد وانتابه السعال.

فسأله زميله بعد فترة صمت طويلة:

- أتشعر بالبرد؟

- لا.. أشعر بتوعك.

فهز الأعرج رأسه:

- أحق ما تقول؟

- أشعر بقلبي يؤلمني.

- أمريض أنت؟

- أظن ذلك، وربما كان الأمر شيئًا آخر.

- اسمع كلامي!... لا تفكر.

- في ماذا؟

- في أي شيء.

فقال وديد فجأة، وقد دبت فيه الحياة:

- ألا ترى، إني لا أستطيع أن أمنع نفسي عن التفكير، فعندما أنظر إلى الحصان أراه عائدًا معي إلى المنزل.

فأنا أيضًا كان لي يومًا حصان... إن النظر إليه لا يجدي شيئًا، ولكن ما أشد نفعه في المزرعة. كان لي يومًا زوج من الخيل.. وكنت أعمل بجد في تلك الأيام.

فسأله الأعرج:

- وماذا أفادك كل هذا؟ لا أحب فيك هذه النوبة. عد إلى عقلك فالذكريات لا تجدي نفعًا.

فألقى وديد بحفنة من الأغصان إلى النار، وأخذ يراقب الشرر وهو يتواثب وتغيبه ظلمة الليل في ثناياها. جلس أمام النار عابسًا، والظلال تتراقص على وجهه، ثم تحول جهة الفرس وأطال النظر إليها.

قال الأعرج بحدة وتأثر:

– يجب ألا نعقد الأشياء، ليست حياتنا إلا يومًا وليلة، وها قد ولت منه أربع وعشرون ساعة! لا تفتح فمك إذا كان لديك طعام، أما إذا افتقرت فاصرخ قليلًا، ثم اسكت، فلن يمنّ عليك أحد... ولا تصرخ فأذن الغير لا تصغي لشكواك... وذلك لأنك مريض تشمئز منه الناس وتنفر من حديثه.

فقال وديد بأسى:

– لست أشك في أن المرض سبب كل هذا.

ثم أضاف بعد فترة صمت:

– وربما كان هذا نتيجة طيبة قلبي.

– وقلبك طيب نتيجة مرضك.

قالها الأعرج بلهجة حاسمة. وقطع غصنًا ضرب به الهواء، فأحدث حفيفًا شديدًا، ثم قال بقسوة:

– ها أنذا مثلًا... إني في صحة جيدة، ولذا لا أشعر بشيء مما تشعر به أنت.

ونقل الفرس أقدامه، وتكسر غصن، وانهارت كتلة من الأرض إلى النهير، فأحدثت في لحنه الخافت أنغامًا جديدة، ثم انطلق من مكان ما طائران صغيران وطارا عبر الوادي يطلقان صيحات جزعة، فاتبعهما وديد بنظره وقال بصوت خافت:

– أية طيور هذه؟ إنها ليست «الزرازير» فهذه لا تعشعش في

الغابات وتفضل «العمار». لا بد أنها طيور الشرشور، وليست غيرها.

فقال الأعرج:

- ربما كانت «مصلب المنقار».

- ليس هذا أوان «مصلب المنقار»، كما أن هذه الطيور تحب الغابات الدائمة الخضرة، فلا صالح لها هنا... أنا متأكد من أنها «الشرشور».

- لتكن الشرشور أو غيره، فما لنا وما لها.

فوافقه وديد قائلًا:

- إنك على حق.

ولعله ما تنهد من أعماقه.

كان الأعرج يعمل بسرعة وهمّة، وانتهى من إعداد قاع السلة وشرع في صنع جوانبها بمهارة، فقطع الغصون بالسكين وسوى أطرافها بأسنانه، ثم ثناها وضفرها بحركات سريعة من أصابعه، وزفر وهو يتلاعب بشواربه.

أما وديد فكان ينظر إليه حينًا وإلى الفرس حينًا آخر، الذي لاح كأنه تحجر في وضعه المرغم عليه، ثم رفع بصره إلى السماء المظلمة الخالية من النجوم، وفجأة قال بصوت غريب:

- سوف يقلق الفلاح ويبحث عن فرسه، والفرس أمامنا! سيبحث في كل مكان- ولا من فرس!

وباعد وديد بين ذراعيه، وكان يرتسم على وجهه تعبير أبله، وعيناه تطرفان بسرعة كأن قد فاجأه ضوء قوي.

فسأله الأعرج بلهجة قاسية:

- ماذا تقصد بهذا الكلام؟

فقال وديد بلهجة من ارتكب إثمًا:

- لقد تذكرت شيئًا.

- ما هو؟

- آه.. ها هو. حدث أن سرق حصان... من جاري... وكان اسمه ميخيلا... كان فلاحًا طويلًا على خديه آثار الجدري...

- وبعد؟

- أجل، سرق حصانه... كان يرعى في الحقل ثم اختفى... فعندما علم ميخيلا أنه قد فقد حصانه، خرج إلى الأرض وراح يصرخ بصوت عال... آه، يا أخي لو سمعت صراخه! وعجز عن الوقوف ثانية كأن قد كسرت ساقاه...

- وبعد؟

- وبعد ذلك، مكث على هذه الحال طويلًا...

- وماذا يعنيك من ذلك؟

فابتعد وديد عن رفيقه قليلًا، عندما سمع هذا السؤال اللاذع، ثم

أجاب في خوف:

– لا شيء... لقد تذكرت ذلك صدفة، فالحصان ساعد الفلاح الأيمن.

فقال الأعرج وهو ينظر إلى وديد مباشرة:

– أتسمح لي أن أنهاك عن مثل هذا اللغو الذي لا فائدة فيه، أفهمت؟ لهفى على جارك ميخيلا...

ما شأنك به؟

فاعترض وديد قائلًا:

– أقول هذا على سبيل الشفقة.

– شفقة! أيشفق علينا مخلوق؟!

– لا، في «هذا» أنت على حق.

– حسنًا، لتلزم الصمت إذن... وسوف نرحل بعد قليل.

– بعد قليل؟

– أجل.

ودنا وديد من النار، وحركها بغصن شجرة، ثم قال بصوت رفيق فيه توسل، وهو ينظر إلى الأعرج بزاوية عينه، الذي كان منهمكًا في عمله:

– ألا يجدر بنا أن نطلق سراح الحصان.

فقال الأعرج محزونًا:

- يا لك من خواف جبان!

فقال وديد برقة واستعطاف:

- تدبر الأمر، فهو خطير، سنسوقه مسافة طويلة زهاء أربعة أو خمسة فراسخ... وماذا يحدث إذا لم يشترها التتر؟ ماذا يكون الأمر؟

- ذلك شأني.

- كما تشاء، ولكن قد يكون الأفضل إطلاق سراحها، إنها تعرف طريقها، ألا ترى هزالها وهرمها!

فسكت الأعرج، ونشطت أصابعه تعمل بجد.

قال وديد برقة ولكن بعناد:

- كم ستحصل منها؟ سيدلهم الليل حالًا. فلو ذهبنا عبر الوادي لوصلنا دوبنكا، وربما صادفنا أحدًا...

كانت حشرجة وديد الرتيبة، تذوب في صرير النهر، وتسمع في الوادي الساكن، وتحير الأعرج المجد في عمله، الذي جلس صامتًا، يصر على أسنانه، والأغصان الرقيقة تتكسر بين يديه لشدة عصبيته.

وتنهد الفرس بصوت مسموع، وبدا في العتمة أقبح منظرًا وأكبر شكلًا وأدعى للشفقة والرثاء.. ونظر إليه الأعرج وبصق في النار.

قال وديد متحسرًا:

– حتى الدواجن ترقد في أعشاشها الآن هادئة مطمئنة.

فسأله الأعرج ثائرًا:

– متى ستنزع من رأسك هذه الترهات، أيها الشيطان؟!

– ذلك حق.. لا تغضب مني، يا ستيفن، لتذهب أنت والفرس إلى الشيطان.

فصاح به الأعرج:

– هل ذقت الطعام اليوم؟

فأجابه وديد خائفًا من صيحته: لا.

– إذن، ليأخذك الشيطان! لا يعنيني إلا إنقاذك من الموت جوعًا ها هنا.

فتطلع إليه وديد صامتًا، بينما زميله يجمع الأغصان في كومة حزمها بخرقة، وهو يزمجر غضبًا.

وألقت النار ظلالها على وجهه النامي الشعر، وشعّت قانية غاضبة.

وتحول عنه وديد وزفر زفرة حرى.

قال الأعرج بصوت أجش:

– استمع إليَّ، لتفعل ما يحلو لك، فلست آبه لشيء.. ولكن دعني أقل لك إني سأفترق عنك إذا أصررت على السير في طريقك هذا! هذا كل ما في الأمر.

- أنت امرؤ عجيب!

- ولا كلمة أخرى.

وانتاب السعال وديد، فلما أفاق من نوبته، قال وهو يتنفس بصعوبة:

- لم أصر على قولي إلا لخطورة الأمر.

فصاح الأعرج غاضبًا: حسنًا.

والتقط كومة الأغصان، ووضعها على كتفه، وعلق السلة الناقصة بذراعه، ونهض واقفًا.

ونهض وديد أيضًا، ونظر إلى زميله، وذهب إلى الحصان هادئًا وتردد صوته الأجش العميق في جنبات الوادي.

- هيا! ليحفظك الرب! لا تخافي.

- هيا! هيا! قفي! حسنًا.. اذهبي الآن.. إلى هناك يا غبية.

وراقب الأعرج زميله وهو يفك قيد الحصان وينزع عن عينيه الخرقة، واهتز شاربه.

قال وهو يزمع السير:

- لنرحل.

وسارا صامتين، يشقان طريقهما بين الأغصان في العتمة التي تغمرهما من كل جانب، وتبعهما الحصان...

وسرعان ما سمعا خلفهما صوت رشاش الماء وهو يتطاير، قاطعًا صريره الرتيب.

فقال وديد:

- لقد سقطت المهرة الغبية في النهر.

فزمجر الأعرج غاضبًا، ولم يقل شيئًا.

وفي ظلمة الوادي وسكونه الكئيب، سمع صوت تكسر الأغصان الخفيض، وشعت كومة الجمر الحمراء كعيون وحوش مفترسة، شريرة ساخرة.

وأشرق القمر.

وملأت أشعته الواهنة الوادي بظلام عكر، جاعلة الغابة أشد كثافة، والسكون أشد وحشة وكآبة، وانتصبت سيقان أشجار البتولا البيضاء كالشموع بين ظلام الأعشاب وأشجار البلوط القصيرة.

وسار الصديقان في قاع الوادي صامتين. وكان المسير عسيرًا عليهما، فكثيرًا ما تنزلق أقدامهما، أو تغوص في الوحل. وكان وديد يسير مجهدًا، مترنمًا بلحنه، فيتصاعد الصوت من صدره أجش محشرجًا كأن قد أخفيت بين أضلاعه ساعة دقاقة لم تنظف من أمد بعيد. وكان الأعرج يسير في المقدمة، ويسقط ظل قامته المنتصبة الطويلة على وديد. وقال فجأة في نغمة شاكية مؤلمة:

- إلى أين تذهب؟ وعلام تبحث؟ إيه؟

فتنهد وديد ولم يقل شيئًا.

- كما أن هذه الليالي أقصر من منقار الغراب، سيبزغ القمر قبل أن نصل إلى القرية.. ألا ترانا كيف نسير؟ إننا نسير كسيدتين ثريتين... تتنزهان.

قال وديد بهدوء:

- إنني متعب يا أخي.

فقال الأعرج ساخرًا:

- أتشعر بسوء؟ ولماذا؟

فأجابه اللص المريض:

- التنفس يؤلمني!

- التنفس؟ ولماذا تتنفس، وتكلف نفسك هذا العناء؟

- إنه المرض فيما أظن.

- أنت مخطئ.. إنه بلاهتك.

وتوقف الأعرج، وتحول إلى زميله، ووضع أصبعه تحت أنفه، وأردف قائلًا:

- أجل، فعسر التنفس سببه بلاهتك!... أتفهم؟

فأحنى وديد رأسه، وقال مستغفرًا:

- أجل، إنك محق!

وكان يريد أن يضيف شيئًا، ولكن انتابته نوبة من السعال، فأمسك جذع شجرة بيديه المرتعشتين، وسعل طويلًا ثم خرّ في مكانه ورأسه يرتجف، وفمه مفتوح إلى آخره.

وأمعن الأعرج النظر في وجهه، الذي بدا مكمدًا مخضرًّا في ضوء القمر، ثم قال: سيوقظ سعالك كل عفاريت الغابة.

وما إن فرغ من سعاله، حتى رجع برأسه إلى الوراء، وتنفس بسهولة، وتحدث مجهدًا:

- لنرتح قليلًا، دعنا نجلس.

فجلسا على الأرض، في ظلال الأغصان، ولف الأعرج سيجارة، وأشعلها، ونظر إلى جذوتها، وقال مندهشًا:

- لو كان لدينا ما نأكله في منزلنا.. لعدنا إليه!

فوافقه وديد:

- بلا شك.

فنظر إليه الأعرج بزاوية عينه وأردف:

- ولكن ما دام منزلنا نظيفًا، فيجب علينا أن نستأنف السير.

فتنهد وديد قائلًا:

- أجل، إن الأمر كذلك.

- رغم أنه لا وجهة لنا، ورغم أنه لا فائدة من المسير، وعلة ذلك

أننا أغبياء.. يا لنا من أغبياء.

وسرى صوت الأعرج في الهواء، وآلم وديد الذي ظل في رقدته يئن، ويحدث أصواتًا غريبة محشرجة.

وختم الأعرج حديثه اللائم قائلًا:

- وأكاد أموت جوعًا.

فنهض وديد بخفة من جلسته، فسأله الأعرج:

- ما الأمر؟

- هيا بنا نستأنف السير!

- ماذا جرى؟

- لنذهب.

فنهض الأعرج أيضًا.

فلوّح وديد بيده قائلًا:

- ليحدث ما يحدث.

- هل استجمعت شجاعتك ثانية؟

- ماذا تقول؟ لقد أنبتني وعذبتني بما فيه الكفاية... آه! يا ربي!

- ما سبب تصرفك السقيم؟

- لماذا تدعوه سقيمًا؟

- أجل، إنه سقيم.

- حسنًا، ألا ترى أني أشفقت.

- على من؟ ولأي سبب؟

- أتقول على من؟ على ذلك الفلاح، فيما أذكر.

فصاح الأعرج:

- الفلاح؟ يا لها من فكرة تستحق الدراسة! إن لك قلبًا ذهبيًّا، وفهمًا بليدًا، أية علاقة تربطك بالفلاح؟ ألا تفهم؟ لو رآك هذا الفلاح لصرعك أرضًا وسحقك تحت أقدامه كالذبابة! فلتشفق عليه عندئذ! اذهب واعرض عليه غباءك، ولسوف يعذبك بسبع طرق مختلفة مكافأة لك على شفقتك. سيلف شعرك حول معصميه، وينتزع عروقك عرقًا عرقًا.. وتتحدث أنت عن.. الشفقة! أولى بك أن تتفزع إلى الله كي يعاملوك بلا شفقة، فيصرعونك بضربة واحدة! آه، منك! لتذهب إلى الشيطان! الشفقة... اتفوه!

كان الأعرج يتأجج غضبًا، يرن صوته في الغابة حادًّا مليئًا بالسخرية والاحتقار لزميله، وترنحت فروع الأغصان محدثة صوتًا خفيضًا، كأنها تؤمن على كلماته القاسية العادلة، بينما وديد يسير الهوينا، متألمًا من كلماته، ويداه في كمي ردائه، ورأسه مدلاة على صدره.

وبعد صمت طويل قال وديد:

- انتظر، لا يهمني كلامك. سأسترد قوتي ونذهب إلى القرية.. سأذهب.. سأذهب وحدي... لا تتعب نفسك بالمجيء معي... سوف

أسطو على أول شيء أصادفه... ثم نعود إلى منزلنا! سنذهب إليه وأمكث فيه... فأنا أشعر بدنو نهايتي.

كان يتكلم بصوت لا يكاد يسمع، وهو يتلمس أنفاسه، وثمة حشرجة في صدره. فنظر إليه الأعرج مرتابًا، ووقف، وكان على وشك أن يقول شيئًا، ولكنه لوح بيده، واستأنف سيره دون أن ينبس بحرف.

وسارا مدة طويلة صامتين.

وأتاهما صوت صياح الديكة من مكان قريب، ونبح كلب، ثم حمل إليهما الهواء دقات أجراس كنيسة القرية القريبة. وحلق طائر كبير، بدا أشبه ببقعة سوداء كبيرة في ضوء القمر، وأحدث حفيف أجنحته في جنبات الوادي صوتًا مقبضًا.

فقال الأعرج:

- قد يكون غرابًا أو حدأة!

فقال وديد وهو يخر إلى الأرض.

- استمع إليَّ، اذهب مصحوبًا بالسلامة، أما أنا فسأمكث هنا.. لا يمكنني أن أعاود السير... إني مقرور... إني دائخ.

قال الأعرج غاضبًا:

- حسنًا، ذلك أمر جميل، ألا تستطيع السير حقًّا؟

- لا أستطيع.

- تهنئاتي. اتفوه!

- إني في غاية الإعياء.

- طبعًا، فنحن نسير من مطلع الشمس بمعدة فارغة.

- لا، ليس الأمر كذلك... لقد هلكت... ألا ترى إلى هذا الدم الذي يتفجر من فمي؟

ورفع وديد يده إلى مستوى عيني الأعرج، فأبصرها مغطاة بشيء معتم. فنظر إليه متسائلًا:

- وماذا نفعل؟

- لا شيء. دعني هنا وحدي يا رفيقي... سأبقى ها هنا... فربما تحسنت لو استرحت.

- وإلى أين أذهب؟ لنفترض أني ذهبت إلى القرية وقلت لهم إن في الغابة رجلًا مريضًا؟

- لا تفعل شيئًا من ذلك... سيضربونك.

- أجل، ما عليك إلا أن تتيح لهم فرصة فيمزقونك إربًا.

واستلقى وديد على ظهره، وسعل سعالًا عنيفًا، وبصق كميات كبيرة من الدم.

فسأله الأعرج، وهو واقف عند رأسه، ينظر جانبًا:

- ألا يزال السعال يعاودك؟

فقال وديد بصوت لا يكاد يسمع، وقد انتابته نوبة جديدة من السعال:

- بل يزداد سوءًا.

فصاح الأعرج ساخرًا:

- آه، لو نستطيع استدعاء أحد!

فسأله وديد بصوت كأنه رجع الصدى:

- من؟

- ألا يمكنك النهوض.. والمسير... ببطء؟

- لا أمل.

فجلس الأعرج عند رأس زميله، وشرع ينظر إلى وجهه وهو مشبك ركبتيه بيديه، بينما صدر وديد يرتفع وينخفض بشدة، وغابت عيناه في محجريهما، وانفرجت شفتاه بشكل غريب، وبدتا كأنهما قد تعلقتا بأسنانه. ومن جانب فمه الأيسر انساب شريط من الدم على خده.

فقال الأعرج، وقد خفت لهجته من السخرية لأول مرة:

- تبًّا لهذا السعال! ألا ينقطع؟

فارتعش وجه وديد، وأجابه في حشرجة واهنة:

- الدم ينزف.

فوضع الأعرج رأسه بين ركبتيه ولزم الصمت.

وانتصب فوقهما جانب الوادي مرتفعًا شاهقًا، وقد تدلت من أعلاه أشجار وشحها القمر بغلالة من الفضة، أما الجانب الآخر، وهو أقل

انحدارًا، فقد نمت عليه الأعشاب، وهنا وهناك بين الصخور القائمة ترتفع جذوع الأشجار، وتبدو أعشاش الطيور من خلال أغصانها العارية، وبدا الوادي وأشعة القمر تغمره أشبه بحلم جميل لا مياه به، وأكد صرير النهير الخافت الواهن خلوه من الحياة، وأثار في النفس الشعور بالوحشة الكئيبة.

قال وديد بهمس، همسًا لا يكاد يسمع:

- أنا أموت.

ثم أعاد قوله في صوت عالٍ واضح:

- أنا أموت يا ستيفن.

فارتجف الأعرج، وزمجر، ثم قال في صوت خفيض خجول كأنه يخشى تعكير السكون السائد، وهو يرفع رأسه عن ركبتيه:

- ليس الأمر سيئًا إلى هذه الدرجة... لا تخف... لن تصاب بسوء... ربما كان كما تقول... ولكنه لا شيء، يا أخي!

فتنهد وديد من أعماقه وقال:

- ارحمني يا رب، وكن في عوني يا يسوع المسيح.

فهمس الأعرج وهو ينحني عليه:

- لا تخف... امنع نفسك من السعال قليلًا... فربما ينقطع.

فأخذ وديد يسعل ثانية، وكان ثمة صوت جديد في صدره، كأن أضلاعه تُصفع «بفوطة» مبتلة. وكان الأعرج ينظر إليه وهو يشد شاربه

صامتًا. فلما انقضت نوبة السعال، أخذ وديد يلهث بصوت مسموع وبشدة، كأنه جرى أميالًا بأقصى سرعته. واستمر على هذه الحال مدة طويلة ثم قال:

- سامحني، يا ستيفن... إذا كنت قد... بخصوص تلك الفرس، فأنت تعرف... سامحني يا أخي!

فقاطعه الأعرج:

- بل سامحني أنت.

ثم أضاف بعد هنيهة:

- وأنا... إلى أين أذهب الآن؟ ماذا سأفعل؟

- حسنًا... ليحفظك الر.....

ولم يكمل بقية الكلمة، ورقد صامتًا.

ثم انبعثت عنه حشرجة... ومدد ساقيه... وانحدرت إحداهما جانبًا. فنظر إليه الأعرج عابسًا متجهمًا. ومرت دقائق طويلة كالساعات.

ثم رفع وديد رأسه، ولكنها سرعان ما ارتدت إلى الأرض ثانية، فانحنى عليه الأعرج متسائلًا:

- ماذا حدث لك، يا أخي؟

ولكن وديد لم يجبه، ورقد على الأرض لا حراك به.

وجلس الأعرج مدة بجانب صديقه، ثم نهض، ونزع قبعته، ورسم

علامة الصليب، وسار ببطء صاعدًا في الوادي. كان وجهه شاحبًا، وحاجباه وشارباه منتفشين، سار يضرب الأرض بقدميه كأنه يحاول إيلامها.

وكان الوقت فجرًا، والسماء قاتمة ملبدة بالسحب، والوادي يسوده سكون كئيب، لا يقطعه صرير النهير الرتيب الخافت.

ولكن فجأة سمع صوت- كأن صخرة انحدرت إلى قاع الوادي- وطار خفاش صائحًا صيحة خوف، وطار بعيدًا، ثم سمع صوت طائر آخر، ففي هواء الوادي الرطب البارد، لا تدوم الأصوات طويلًا، فهي تولد وتموت سريعًا.

* * *

وحشية

وقعت هذه الحادثة منذ خمسة عشرة عامًا، في إحدى المدن على ضفاف الفولجا.

ففي ذات يوم مشمس من شهر يونية، كنت مشغولًا في الصباح على ضفة النهر في دهن قارب بالقار، وكانت ساعة الغداء التي تمنح ظهرًا للعمال قد اقتربت، عندما تصاعدت فجأة، في ناحية ما من الضاحية، زمجرة صارخة مرعبة أشبه بجئير الثيران الغاضبة الجائعة. ولما كنت جائعًا أيضًا، فقد قررت إنهاء عملي بأسرع ما أستطيع، ولم أعر هذه الضوضاء أول الأمر أدنى اهتمام، التي أخذت تتزايد دقيقة بعد أخرى مثل ألسنة النار التي تندلع عند ابتداء الحريق.

وخيمت على الضاحية سحابة كثيفة من الغبار انتشرت في الهواء الخانق، فتطلعت من مكاني، وبدا لي أن أرى الجو مشبع بالأنغام الغليظة المعقدة المتنافرة المتصاعدة مع الغبار، الذي كان يشتد كثافة دقيقة بعد أخرى. ولم يمض قليل وقت حتى تميزت أصوات الضوضاء واتضحت، فخفق قلبي تحت وطأة الشعور متوجسًا من وقوع كارثة.

فتركت عملي وهرعت لأرى الأمر، فرأيت رجالًا كثيرين يندفعون من منازلهم خارجين، ويصعدون في الطريق المؤدي إلى آخر الضاحية مسرعين. والأولاد والكلاب تعدو في إثرهم، والحمائم تحلق فوق رؤوسهم، والدجاجات تجري بين أقدامهم. فأثر في نفسي هذا الاضطراب، وشرعت أجري معهم. وصاح واحد من الجمع:

- إنهم يضربونه في شارع إكا ترينسكايا!

وكان أمام الحشد رجل يمتطي حصانًا، ضرب حصانه ضربتين بلجامه فجأة، وأرخى له العنان، فاندفع الحصان يجري في عرض الشارع المترب كأن قد أصابه مسّ.

وصاح صوت لا أدري مصدره:

- إنهم يقتلوننا.

فانثنيت إلى منعطف ضيق ووقفت هناك.

كان الازدحام في هذه الحارة أشبه بحقيبة قمح بعثر ما فيها. وكانت تنبعث من بعيد صيحات وهتافات عالية، وأصوات تكسير مركبات، ورجع صدى ضربات ثقيلة، وقرقعات، وأصوات سقوط أشياء، وكانت هذه النغمات الحادة تتتابع بسرعة، وتمتزج بعضها ببعض أشبه بسحب الخريف، وتذوب في الهواء في أمواج ثقيلة.

وأبصرت عجوزًا نظيفًا هزيلًا، يفرك يديه الصغيرتين الذابلتين، ويقول:

- إنه عمل حسن.

فذهبت جهة الضوضاء، مندفعًا بجاذبيتها الآسرة المحيرة، وكنت متدفقًا في غمرة جمع كبير تأسره وتستغرقه هذه الضوضاء المخيفة، كأنه مستنقع متحرك. وكانت الوجوه حولي تعبر عن غضب عنيف أبله، والعيون تشع منها نيران تنذر بالشر، وكان هذا الحشد يتقدم في كتلة كثيفة متماسكة، مستعدة لتحطيم كل ما يعترض طريقها. وكلهم على استعداد ليدوسوا بأقدامهم أجساد الذين سبقوهم ليسيروا فوقها.

ووجدت بقربي منزلًا ذا سور منخفض، فتسلقته، فرأيت نفسي في فناء متسع وسط حشد غفير. كانت الأرض تهتز تحت أقدام هذا الجمع الغاضب الذي يملأ هذا الفناء الداخلي الضيق لبيت من الحجر.

واعتليت حجرًا بجانب السور، فأبصرت هؤلاء الناس يتماوجون ويتصايحون كمن ركبهم جان، ووجوههم تطفح بالشر وأسنانهم تلمع في أفواههم المفتوحة، ويلوحون بقبضاتهم ويهزونها مهددين ويزحفون جهة المنزل، وكان بعضهم يسقط أرضًا ثم ينهض ليزحف مع الجمع ثانية، ورغم تنوع إشاراتهم وحركاتهم، فقد بدوا جميعًا أشبه بجسد غاضب يفور بقوة واحدة متحدة غاضبة.

وكان يشرف على هذا الصليل المتماوج الذي تجمع بينه كراهية واحدة، يهودي ضئيل الحجم، طويل القامة، وقف على سطح البيت بقرب المدخنة، ينزع الأحجار ويجمعها في كوم، وصيحات الناس العالية تهدده، وذقنه الطويلة البيضاء ترتجف على صدره، وسرواله

الأبيض مغطى ببقع حمراء.

وتصاعدت نحوه الصيحات غاضبة:

- أنزلوه من فوق.

- هاتوا فأسًا! وارجموه بالأحجار.

- يجب تقويض السقف.

وكانت أجساد الرجال القاتمة تمر أمام نوافذ المنزل- تؤذي العين- وتشارك في أي عمل كان.

وتكسرت ألواح زجاج النوافذ محدثة ضوضاء عالية.

وعمل صبي ذو شعر أجعد ووجه مسطح، مرآة، واقترب من فتحة في الجدار وألقى حمله في الفناء وهو يصيح:

- إيه! هنا! انزل من فوق!

واخترقت المرآة الفضاء، عاكسة الشمس، وانحنى اليهودي، تتبعه الأعين، وجسده الطويل يبدو مضعضعًا حزينًا، ولكنه لا يثير إلا الكراهية.

وصعد إلى نافذة أخرى فلاح ذو لحية سوداء، وبيده كومة من الريش انتزعها من إحدى الوسائد، وألقى بالريش في الهواء، فتبعثر في الفضاء كأنه سحابة من جليد.. وصاح وهو ينظر إلى السحابة البيضاء وهي تنزل على رؤوس الحشد.

وتصاعدت أصوات من الفناء تقول:

- أنزلهم إلى هنا! لقد عثروا على اليهود في عشهم!

- فتتوا رؤوسهم بالجدران.

- هيه! يا يهوذا العجوز، لقد وضعوا أيديهم على صغارك.

- انزل، وإلا أزلنا من الوجود أولادك.

ومزقت الهواء صرخة طفل حادة، صرخة مرعبة، علت فوق جئير الحشد الهادر، وحزت في القلوب سريعة كومض البرق، فهدأ الحشد لحظة، وصاح واحد منهم:

- لا تلمسوهم!

- لا تلمسوا الأطفال.

- خذوا بالكم من الكبار.

ورن من جديد صوت الصغير ضعيفًا، ولكنه كان نفاذًا، يمزق القلب ويصك الآذان، أقوى من السخرية.. أشد من الاستهزاء.

فصاح أحدهم بوحشية، مسكتًا كل ضوضاء حوله:

- آه! يا للشيطان.

- اضربه على رأسه.

- لقد كسر ساقي.

- حذار أن ترتكب هذه الجريمة، أيها الشيطان العجوز!

- يا أنتيب! اضرب هذا اليهودي من عندك.

وشق الجمع المضج شابان يبدو عليهما الشر وحب الإيذاء، واقتربا من بناء خفيض يؤدي إلى منزل اليهودي، وشرعا يتسلقان سقفه.

ولاح من جديد، في إحدى النوافذ، الصبي ذو الوجه الوردي المتجهم، وهو يجهد نفسه في أن يدفع إلى الجمع مقصفًا أو خزانة كبيرة، من النافذة، وصاح قائلًا:

- خذوا طاقم المائدة ونظموا صفوفكم.

ولم يستطع دفع الخزانة من خلال الفتحة، فشدها إلى الخلف، واختفى دقيقة، ثم ظهر في النافذة من جديد، أشبه بذئب في ثورة غضبه، وصاح:

- خذوا.

فاندفعت من النافذة كومة من الصحاف، وفي أعقابها ساموفر يلمع كالشمس، فتراجع الحشد إلى الوراء، ورفع يديه يحمي بها رأسه، وهو يضحك من الأشياء وهي تتناثر شذرًا على الأرض. واستحوذ شاب ضخم مفتول العضل على الساموفر.

وشقت الهواء صرخة لا إنسانية، فارتفعت الرؤوس كلها متطلعة.. وظهر على حافة السطح شكل طويل غير محدد المعالم، تأرجح لحظات في الهواء وأن أنينًا مرعبًا... ثم هوى على الأرض محدثًا صوتًا لينًا مخيفًا، فنزلت إلى الفناء وخلفي تنفجر صيحات

الانتصار الوحشية:

- آه! آه!

- آها.

- لقد أوقعوه.

وكان الناس في الشوارع يحطمون الكراسي والموائد ويمزقون الثياب إربًا. والرياش يتطاير في الهواء، والوسائد، والسلال، وقطع الأثاث والعقود والمستندات، تنقذف من النوافذ وتقع عند أقدام الحشد الذي كان يتناول كل شيء، ويسحقه، ويمزق كل ما يقع تحت يده، وقد أخذته نوبة جنون تريد تدمير كل شيء. وأبصرت امرأتين ضخمتين ملونتين، يسبح وجهاهما في العرق، يتنازعان على خزانة، وكل منهما تشدها نحوها، بينما الرياش والأمتعة تتساقط فوق رأسيهما، وهما تتشاتمان، بأعلى صوتهما، الذي كان يضيع في زئير الحشد، وفي صيحات الخوف المعولة القادمة من نوافذ المنازل، وفي أزيز الخشب وهو يتكسر.

ومر بي فلاح متين البنية عاري الرأس، ممزق الثياب، أشعث الشعر، والدم الكثيف يسيل على خديه المغطيين بالغبار والأقذار. كان يلوح بيديه ويضحك ضحكًا معتوهًا، أشبه بوحش هرم متهوم ومغتبط. وحاول تحطيم عامود من حجر، بدفعة قوية من صدره.

وصاح فلاح آخر:

- يحيا التحطيم.

وأمسك بدوره قطعة كبيرة من الآنية، وحطمها محدثًا ضوضاء لا حد لها.

وفجأة اندفعت بين الحشد فتاة في ريعان الشباب، أشبه بحمامة تكتنفها سحابة من دخان. كان شعرها مرسلًا، وفستانها مزينًا بالزهور، رافعة الرأس، وعيناها تشعان في وجهها أشعاع كبرياء وعظمة.

فصاح أحدهم:

- اليهودية.

وفي لمح البصر اختفت الفتاة تحت الكتلة الصائحة الهائجة، وارتمت فوقها أكوام من الأجساد، وارتفعت في الهواء قبضات مضمومة، وشتائم داعرة، وصيحات غاضبة، وتعالى الصياح والضجيج، وامتزج كل هذا في ضوضاء عالية تفوح كراهية وغضبًا.

وصاحت جماعة تحمل فيما بينها شيئًا:

- ابتعدوا! أفسحوا مكانًا لسليمان!

وكان هذا الشيء إنسانًا، أو بالأصح جثة رجل عارية رطبة، جثة يابسة، تعلوها الجروح والطعنات، ويغطيها الطين والدم. وكانت ساقاه مقيدتين بحبل. وضعوا في منتصف الشارع هذا الحطام الذي أخذ يحجب أرضه بشريط قان من الدماء، كان ذراعا الجثة تستحمان في الدماء، وفي المكان الذي يتصل فيه الذراعان بالكتفين، كان تقابل

الأحجار المتناثرة كرة منتفخة، بشعة، ممزقة.

وأسرع شقي وداس على الجثة، وغاص بقدميه في بطنها كما يغوص في عجينة لينة، حتى انتابه التعب، فارتد إلى الجمع الذي كان يضج ويصخب ويصيح.

كان سليمان مقاولًا غنيًّا، كثيرًا ما قابلته في حياته. ولكن ما أراه أمامي الآن لا يشبه كائنًا إنسانيًّا، فما بالك بمقاول.

وقفت مكاني ذاك، شبيهًا بقطرة بين أمواج، متضايقًا يخنقني الغبار. وبدأ المشهد الذي مر أمام عيني كأنه كابوس غريب. فها هنا، تعلقت بفتحة الميزاب «جونلة» بيضاء.. ممزقة من عند القدمين، يرفرف ذراعاها الأسودان في الهواء، بينما تحاول امرأة عجوز إمساكها. وبالقرب منها جامع أسمال ملتح يحشر في بقجته المليئة طاقية من القطيفة، والأطفال الأشقياء يجرون بين أقدام الكبار يلتقطون بقايا المرآة. وقفز أحدهم في الهواء يريد الإمساك بريشة تطير.

وأقبل أحد رجال البوليس، يهز سيفه المسلول، فاستقبلته الصيحات والضحكات.

– امسكه.

– امسك الحرامي.

ودفع أحدهم بخزانة مفتوحة بين قدميه فسقط الرجل أرضًا.

وانفجرت الضحكات الصاخبة في كل مكان.

وأبصرت على الأرض قطعة من بشرة تتنضح بالدم لا تزال بها خصلة من الشعر.

- أوه، آه! أمسكوا الصبيين!

وارتفعت الصيحات من الفناء الداخلي فاندفع إليه الحشد في الحال، وتعالت في الجو أصوات الجذب والشد، والصيحات، والصراخ. وسمعت صوتًا يقول:

- إلى الموت! إلى الموت!

وفي الطابق الثاني من البيت أبصرت رجلًا يزيل بالفأس حائطًا بين نافذتين. وتناثرت الحجارة والمونة إلى الطريق في عاصفة من الغبار الأبيض. وبرز من النافذة سنان مشرع وضرب امرأة ضخمة على رأسها، فتداعت إلى الأرض وهي تصيح:

- القوزاق.

- لنهرب.

- ها هم القوزاق.

وبدت قبعات القوزاق الزرقاء من أقصى الممر، وأخذت السياط تقرع الهواء.. وصاح صوت عذب رنان آمرًا:

- ثلاثة... ثلاثة... وأسرعوا.

وتساقط كوم من الأحجار إلى الرصيف، وتهدم البناء، ومن الفتحة الواسعة التي أحدثت في واجهة المنزل، سقط دولاب كبير

الحجم وتناثر قطعًا. كان قد انزلق بصعوبة كأنه يسقط رغمًا عنه، واصطدم بالحافة، واستدار على نفسه ووقع مهشمًا على كومة الأحجار المتكسرة. كانت الضوضاء المتصلة تملأ الجو، أشبه بهدير نهر مندفع، وتفور غضبًا مثيرة الخوف الوحشي في القلوب.

واندفع القطيع الآدمي هاربًا تحت ضربات السياط ودفعات الجياد. هرب مذعورًا، متوحشًا، أعمى، كأنه قطيع من الخراف.

كانوا يندفعون في الأفنية، ويقفزون خلال الحشائش... لا يلوون على شيء. ولكن هذه الكائنات انحصرت بين فرسان القوزاق والزقاق المسدود، فلم يجدوا مفرًّا من الارتداد إلى السياط التي تسيط ظهورهم، وأكتافهم، ورؤوسهم. واستدار فجأة فلاح متين البنية أجعد الشعر وضرب بقوة قبضته خياشيم حصان من جياد القوزاق، فسرعان ما اختفى بين حلقات القوزاق المتراصة المتكاثفة. واستمرت السياط تعمل طويلًا في المكان الذي غاب فيه... وتقدم فرسان القوزاق راكبين، في صفوف كجدارٍ سميك، والحشد يتفرق ويتبدد أمامهم، في سحابة مشوشة. وصاح صوت من علٍ:

- وجهوا الحجارة إلى القوزاق.

وجأر الحشد هاربًا كالسيل حطته الرياح من علٍ، وامتلأ الجو بصدمات الأقدام الثقيلة ووقع حوافر الجياد على الطريق. وتقدمت الجياد تشق طريقها بين قطع الأثاث المهشمة، والأمتعة التي تعوق طريقها، ثم توقفت... وتوقف الجمهور أيضًا، واستدار إلى القوزاق.

- إلى الأمام.

فجأر الحشد بالصراخ ووقف منتظرًا.

وربض خلف الفرسان، في نهاية الزقاق، رجال الشرطة وجنود القوزاق على أقدامهم... فاندفع الحشد يتسلق الجدران، ويتوارى في الحنايا والأركان، ولكن فرسان القوزاق وقفوا في طريق الهاربين وأمسكوهم. وقد كانوا منذ دقائق مضت وحوشًا يتأججون رغبة في الجريمة والقتل، دون رحمة أو شفقة أو مبالاة.

وفي مساء نفس اليوم، كنت أعبر الطريق بالقرب من ثكنات القوزاق، فسمعت أحدهم يقول لآخر:

- يبدو أنهم قتلوا أربعة عشر يهوديًا.

فاستمر الآخر يدخن غليونه ولا يجيب بشيء على كلمات زميله.

* * *

حادثة المشابك

كنا ثلاثة أصدقاء، سيومكا، وأنا، وميشكا، وهو عملاق ذو لحية وعينين زرقاوين كبيرتين منتفختين من أثر الخمر، ترمقان ما تقع عليه بنظرة عطوفة ودودة، وكنا نعيش جماعة خارج المدينة في بيت متهدم قديم يدعوه الناس لعلة ما «مصنع الزجاج»، ولعل السبب في هذه التسمية هو خلو نوافذه كلها من أي أثر للزجاج.

وكنا نقوم بأي عمل يتاح لنا، فكنا ننظف الأفنية، ونحفر الحفر والأقبية، والمجاري، ونزيل الأبنية القديمة والأسوار، بل حاولنا ذات مرة أن نبني خنًّا للدجاج. ولكن فشلت هذه المحاولة؛ لأن سيومكا، الذي كان يضع نفسه موضع المراقب فيما نأخذه على عاتقنا من أعمال، تزايد ارتيابه في معلوماتنا عن هندسة مساكن الدجاج، فما إن أقبلت ساعة الغداء التي تمنح للعمال ظهرًا، حتى حمل المسامير، والبلطة ولوحين جديدين من الخشب، وكانت كلها ملك مخدومنا، وانصرف بها. وقد ناقشنا مخدومنا الحساب، ولكن نظرًا لخلو وفاضنا، فقد أخلى سبيلنا دون تعويض.

كنا نعيش من اليد للفم.

وكنا غير راضين عن دخلنا الذي يعتبر معقولًا وعادلًا في تلك الأيام. وأحيانًا يبلغ بنا الاستياء حدًّا يثيرنا على كل ما يتعلق بنا، ويكاد يدفعنا إلى أعمال يمنعها «قانون العقوبات الذي فرضته محاكم الأمن» وكنا إذا عضنا الجوع الذي لا نعرف معه متى سنأكل، نصبح في شبه غيبوبة، ولم يعد يعنينا من الدنيا إلا منافعها المادية.

كنا قد تعارفنا منذ أسبوعين في وكالة، قبل وقوع هذه الحادثة التي أرغب في روايتها لاعتقادي أنها مشوقة، ولم يمض على تعارفنا يومان أو ثلاثة حتى أصبحنا أصدقاء. نجوب كل مكان معًا، ويبوح كل منا لأخيه بآماله وأحلامه، ونتقاسم ما يكسبه كل منا، وبعبارة أصح، عقدنا فيما بيننا معاهدة دفاعية هجومية ضد الحياة، التي كانت تعاملنا بجفاء وخشونة. وخلال النهار نسعى إلى أرزاقنا، فإذا سنح لنا عمل من تلك الأعمال، كنا نبدأه بحمية ونشاط. ولكن ما تكاد تمضي علينا ساعتان، حتى نسأمه ويعترينا الكلال، وقد يكون سبب ذلك هو أن كلًّا منا يعتقد في قرارة نفسه أنه أرقى من ممارسة الحفر، أو تنظيف المجاري، وعندئذ يشرع سيومكا في إعلان شكوكه في قيمة عملنا:

ها أنتم أولاء تحفرون، فلماذا؟ كي تردموا القاذورات. فلم لا يلقونها في الفناء؟ إنهم يقولون إن هذا لا يصح؛ لأنها ستتصاعد رائحتها! أي هراء يتحدث به الناس، لأجل قتل الوقت. لنفرض جدلًا أنك ألقيت في الفناء خيارًا مخللًا، فكيف تفوح رائحته، وهو كمية

ضئيلة؟ سيمكث الخيار في مكانه يومين أو ثلاثة، ثم يتحلل ويختفي، ولكنك إذا ألقيت في العراء رجلًا ميتًا، فإنه ستفوح رائحته طبعًا؛ وذلك لأنه كمية كبيرة.

وكان تفلسف سيومكا يحد من نشاطنا في العمل. وكان هذا أجدى لنا إذا كان العمل باليومية. ولكن إذا كان العمل «مقاولة» أخذنا أجرنا مقدمًا وأنفقناه على الطعام قبل أن ننتهي من عملنا. ثم نذهب إلى صاحب العمل ونطالبه بزيادة الأجر، فيأمرنا غالبًا بالخروج من حضرته، مهددًا إيانا باستدعاء البوليس لإجبارنا على إنهاء العمل الذي قبضنا أجرته مقدمًا. فنحاول إفهامه أننا لا نستطيع أن نعمل والجوع يفري أمعدتنا، ونلح عليه كي يزيد الأجر، وغالبًا ما كنا ننجح في ذلك، لا شك إننا لم نكن عادلين، ولكنا نربح بذلك، كما أنه ليس ذنبنا أن نظمت الحياة تنظيمًا يعود على العادل بالخسارة.

وكان سيومكا هو الذي يأخذ على عاتقه دائمًا مناقشة صاحب العمل، ليقود المناقشة بمهارة الفنان، بادئًا بحججه وبراهينه بلهجة من أضناه العمل وامتص كل قواه. أما ميشكا فكان يقف متطلعًا إليهما، ملتزمًا الصمت، زاويًا عينيه الزرقاوين، وبين الحين والحين تلوح على شفتيه ابتسامة كمن يحاول أن يقول شيئًا ولا يستطيع. وقد كان فعلًا مقلًّا في حديثه، وليس غير الخمر يجعله يتلفظ بشيء أشبه بالكلام.

كان يقول مبتسمًا وشفتاه ملتويتان بشكل غريب، وثمة شيء في حلقه يضايقه: «أيها الزملاء».

وبعد أن يبدأ حديثه هكذا، يسعل بعض الوقت، ضاغطًا صدره بيده، فيشجعه سيومكا نافد الصبر، قائلًا:

- حسنًا.

يا زملائي إننا نحيا كالكلاب... بل الحقيقة إننا أسوأ منها. ولماذا؟ لا أحد يدري السبب. ولكن لا شك أن هذه إرادة الله، فلا يحدث شيء في هذه الدنيا إلا تبعًا لإرادته، أليس كذلك يا إخوان، حسنًا، إذن... هذا يعني أننا نستحق حياة الكلاب؛ لأننا أشرار، ألسنا أشرارًا؟ حسنًا، إذن... إذن فإن ما يصيبنا عدل لا ظلم فيه، ألست على صواب؟ إذن ننتهي إلى أننا نستحق ما يحدث لنا. ويجب علينا أن نذعن لحظنا، أليس كذلك؟ ألست على صواب؟

- عبيط... مغفل!

هكذا كان يجيبه سيومكا غير عابئ بأسئلته اللحوحة المستفسرة، فينكمش ميشكا كأنه ارتكب إثمًا، ويبتسم ابتسامة خجلة، ويلزم الصمت، زاويًا عينيه المخمورتين.

وذات يوم اعترضت طريقنا «قطعة» من الحظ.

كنا نشق طريقنا في السوق بحثًا عن عمل، فوقعنا على امرأة عجوز نحيلة، قصيرة القامة، ملأ الزمن وجهها بالتجاعيد. كانت رأسها تهتز وتعتلي أنفها نظارة كبيرة فضية الحواف، الذي كان أشبه بمنقار البومة، ولا تفتر عن إصلاحها كلما حاولت الانزلاق عن موضعها، وترسل

نظرات حادة من عينيها الباردتين اللامعتين.

سألتنا ونحن نرمقها جميعًا بنظرة أمل وترقب:

- هل أنتم أحرار؟ أتبحثون عن عمل؟

فأجابها سيومكا بالإيجاب، محملًا إجابته شيئًا كثيرًا من التوقير. فقالت:

- حسنًا. لدي حمام أريد تقويضه، وبئر أريد نزحه. كم تريدون أجرًا لكم؟

فقال سيومكا بتعقل وأدب:

- يلزمنا أن نرى مدى اتساع حمامك، يا مدام. ثم نرى البئر، فهناك أنواع كثيرة من الآبار، وبعضها شديد العمق.

فدعتنا لنرى العمل، ولم تمض ساعة، حتى كنا منهمكين في إزالة جدران الحمام، متعهدين بإزالته ونزح ماء البئر نظير خمسة روبلات. وكان الحمام يقع في ركن من حديقة قديمة مهملة، وغير بعيد عنه، يكمن كوخ جميل، بين أشجار الكريز، وكان يمكننا أن نرى السيدة العجوز جالسة في ركن منه، على مقعد طويل، مستغرقة في قراءة كتاب ضخم يرقد على ركبتيها. ومن حين لآخر ترمقنا بنظرة حادة يقظة، والكتاب في حجرها ومشابكه الفضية الكبيرة، تشع في ضوء الشمس.

وكان تقويض هذا الحمام أسهل عمل قمنا به...

كنا نعمل منهمكين في سحب من الغبار الجاف الكريه، نعطس، ونسعل، ونجفف أنوفنا، وندعك أنوفنا؛ فقد كان الحمام هرمًا كصاحبته، لا نكاد نعمل فيه معاولنا حتى يتناثر قطعًا صغيرة.

وفجأة أمرنا سيومكا، قائلًا:

- تعالوا كلكم إلى هذه الناحية، يا إخوان!

وتداعت ألواح الخشب إلى الأرض، واحدًا بعد الآخر.

وتساءل ميشكا مفكرًا، ومنحنيًا على معوله، يجفف حبات العرق من على وجهه براحة يده. وفجأة بصق في يديه، ورفع معوله ليدفع به في فتحة بين لوحين من الخشب، وأردف يقول بنفس اللهجة المفكرة:

- لو كان هذا الكتاب توراة، فهو يبدو ضخمًا...

فاستفسر سيومكا، قائلًا:

- وما يعنيك منه؟

- يعنيني؟ لا يعنيني في شيء. كل ما هنالك، هو أني أحب أن أنصت للقراءة، فلو كان هذا الكتاب كتابًا مقدسًا... لقد كان في قريتنا جندي متقاعد، يدعى أفريكان، إذا شرع يقرأ المزامير، علا صوته حتى يغدو كدقات الطبل، كان صوته عاليًا!

فسأله سيومكا ثانية، وهو يلف سيجارة بأصابعه:

- حسنًا، وماذا في ذلك؟

- لا شيء البتة. ولكن القراءة أمر جميل! قد لا يفهم المرء معنى

كلماتها كلها، ولكن... أقصد... إن الإنسان لا يسمع شيئًا كهذا في الشارع... إنك لا تفقه معناها، ولكنك تحس أن هذه الكلمات قد جعلت لمخاطبة الروح.

فسخر سيومكا من زميله قائلًا:

– أسمعك تقول إنك لا تدرك مرامي الكلام، وذلك لأنك غبي كالثور.

فتنهد ميشكا قائلًا:

– أنت تشتمني دائمًا.

– وكيف نخاطب الأغبياء إذن؟ أتراهم يفقهون شيئًا؟ هيا، اهدم هذا الجدار العفن، هيا!

وأخذ كوم الحطام يتزايد حول الحمام وهو يتناثر شذرًا، واكتنفت البناء سحب الدخان التي أحالت أوراق الأشجار القريبة إلى اللون الرمادي القاتم. والشمس الملتهبة تشوي ظهورنا وسواعدنا بلا رحمة.

وعاد ميشكا إلى الموضوع نفسه يقول:

– إن الكتاب ذو مشابك من فضة.

فرفع سيومكا رأسه ورمق الكوخ الذي تجلس فيه السيدة بنظرة حادة، وقال باختصار:

– انظر.

– إذن فهذا الكتاب هو التوراة.

– قد يكون التوراة... وماذا في ذلك؟

– لا شيء.

– بجيبي كلام كثير من هذا القبيل.. فإذا كنت شغوفًا بالنصوص المقدسة، فلماذا لا تذهب إليها قائلًا:

اقرئي لي قليلًا، يا جدتي. وليس من سبيل إلى سماع مثل هذا الكلام المقدس. فنحن لا نذهب إلى الكنيسة، ولسنا أتقياء، إننا خطاة... ولا تنسى أن لنا نفوسًا أيضًا، يجب أن تتغذى... كي تصلح... فاذهب الآن وأخبرها رغبتك.

– هل أذهب حقًّا؟

– لا تتردد.

فألقى ميشكا المعول من يده، وأصلح من قميصه، ومسح الغبار عن وجهه بكمه، وقفز من السقف إلى الأرض.

فصاح سيومكا في إثره هازئًا، ولكن بفضول شديد متتبعًا بعينيه شكل زميله:

– ستردك خائبًا، يا عفريت.

وكان ميشكا يشق طريقه وسط الأحجار إلى الكوخ، وهو يسير متثاقلًا بقامته الطويلة، وذراعيه القذرين العاريين، ويترنح في مشيته، ويبتسم بإنكار. ورفعت السيدة رأسها حينما أحست بدنوه منها، ونظرت إليه من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى. وكانت أشعة

الشمس تتلاعب على عويناتها.

وخيبت السيدة نبوءة سيومكا فلم ترده خائبًا، ولم نستطع سماع ما قاله ميشكا للسيدة بسبب حفيف أوراق الشجر، ولكنا رأيناه يتداعى إلى الأرض متثاقلًا، ويقعد بقرب قدمي السيدة بحيث تكاد أنفه تلمس الكتاب المفتوح. كان وجهه هادئًا، ورأيناه يضرب لحيته بيده كي يزيل التراب عنها، ثم يستقر على الأرض في وضع متعب مادًّا رقبته محملقًا بشغف في يدي السيدة الذابلتين وهما تقلبان صفحات الكتاب بطريقة جامدة رتيبة.

– انظر إلى هذا الكلب الأشعث! لقد حصل على ما يبغي بسهولة، لماذا لا نذهب نحن أيضًا؟ ما المانع؟ إنه سيرتاح عند قدميها بينما نكدح نحن هنا من أجله؟ هل نذهب؟ ولم تمض دقيقتان أو ثلاثة حتى كنت وسيومكا جالسين على الأرض، مع زميلنا. لم تقل لنا السيدة أي شيء، بل عبست في وجهينا وعادت تقلب صفحات الكتاب تبحث عن شيء فيها. كنا جالسين وسط شجيرات خضراء، زكية الرائحة وتظللنا سماء خالية من السحب. ومن حين لآخر يهب النسيم فيصدر عن أوراق الشجيرات ذلك الصوت الغامض الذي يهدهد الروح باعثًا فيها الطمأنينة والسلام، حاملًا المرء على أن يفكر في شيء غامض ولكنه إنساني إلى أقصى حد، مخلصًا الروح من كل تعاسة، أو مبعدًا الذاكرة عنها بعض الوقت، متيحًا للإنسان أن يستنشق أنفاسه في جو من الراحة والانتعاش.

بطرس، خادم يسوع المسيح.

هكذا بدأت السيدة قراءتها، بصوتها الأجش المرتعش النبرات بتأثير الشيخوخة الفائض ورعًا وكبرًا صلدًا. وما كادت تنطق الأحرف الأولى حتى رسم ميشكا علامة الصليب بوقار، بينما يحاول الاستقرار على الأرض في وضع مريح. فرشقته المرأة العجوز بنظرة دون أن تتوقف عن القراءة.

«سأسبغ عليك بركتي الروحية لأني محب لك، ولكي تهدأ روحك وتستقر فقد أنعم معك بالإيمان الذي يوحد بين قلبينا»

فتثاءب سيومكا، كما يفعل أي أمي مثله، ووجه إليه زميله نظرة لوم وتأنيب من عينيه الزرقاوين، ورفع رأسه الأشعث المترب. ونظرت المرأة العجوز إلى سيومكا نظرة قاسية حيرته وأربكته، فلوى أنفه بأصابعه، وأرخى ناظريه، وحاول إخفاء الأثر السيئ الذي أحدثه تثاؤبه، فتنهد من أعماقه تنهيدة كلها ورع وتقى.

ومرت عدة دقائق في سكون. ثم عاد الصوت الواضح الرتيب يقرأ من جديد:

– توبوا.... لأن غضب الله حاق بكل الشرور و....

وفجأة صاحت القارئة في سيومكا:

– ماذا تريد؟

– لكن... لا شيء! لتتفضل فضيلتك بالقراءة، كلي آذان صاغية.

فسألته المرأة العجوز غاضبة:

- لماذا تلمس المشابك بمخلبك القذر؟

- أنا فضولي يا سيدتي... ولأنها شيء جميل.. إني أفهم في مثل هذه الأشياء.. فصناعتي حداد... ولذا لمستها.

فأمرته السيدة بجفاء:

- اسمع. أخبرني عما قرأت.

- لماذا يا سيدتي؟ أنا أعرف طبعًا.

- حسنًا لتخبرني إذن.

- إنها موعظة... عن الإيمان، وعن الشرور... إنها بسيطة جدًّا، كما أنها حق صراح! فهي تنفذ إلى الروح مباشرة.

فهزت السيدة العجوز رأسها آسفة، ونظرت إلينا لائمة قائلة:

- أنتم أشرار... أجلاف لا تفهمون.

فقال ميشكا وهو يبتسم ابتسامة من يثقله الإثم:

- يبدو أن السيدة غاضبة.

وخمش سيومكا صدره، وتثاءب، وقال مفكرًا، وهو يراقب المرأة العجوز تسير في ممشى الحديقة الضيق، دون أن تنظر خلفها، وقال وهو يهمس في آذاننا كأنه يسر لنا خبرًا طريفًا:

- المشابك التي على الكتاب من الفضة إني واثق...

وقضينا الليلة في الحديقة بقرب حطام الحمام الذي أزلناه تمامًا خلال النهار، وما إن أقبل ظهر اليوم التالي حتى كنا قد نزحنا البئر وجلسنا في الفناء قرب الدرجات المؤدية إلى المنزل مبتلين مغبرين، ننتظر أجرنا، فنتبادل الحديث ونصور لأنفسنا الغداء الجيد والعشاء المتوسط.

ولم يرغب واحد منا أن يتطلع إلى أبعد من ذلك المستقبل...

وقال سيومكا نافد الصبر غاضبًا:

– لماذا تتباطأ العجوز علينا بحق الشيطان. هل اقتنعت؟

فهز ميشكا رأسه مؤنبًا:

– ها قد عاد الرجل إلى الشتائم. ولماذا يشتم؟ إن السيدة العجوز مؤمنة، ومن النوع الذي يتقي الله. ولكنه يشتمها. يا لسوء طبعه. فقال زميله ساخرًا:

– وأنت هادئ الطبع جدًّا؟ أيها الغراب.

وقطع ظهور السيدة هذه المحادثة اللطيفة بين الصديقين. فقد أقبلت علينا، ومدت لنا يدها بالنقود، وقالت بازدراء:

– خذوا وامضوا. لقد كنت على وشك أن أجعلكم تنشرون ألواح الخشب للمدفأة، ولكنكم لا تستحقون ذلك.

وانصرفنا محرومين من العمل الذي لم نكن بحاجة إليه وقتها، حاملين النقود دون أن ننبس بحرف. ولكنا ما كدنا نجتاز البوابة، حتى

قال سيومكا:

– يا لتلك الحيزبون الشمطاء! نحن لا نستحق العمل! يا لها من ضفدعة عفنة! اذهبي واعوي فوق كتابك الآن.

ووضع يده في جيبه، وأخرج قطعتين لامعتين من المعدن وعرضها علينا مزهوًّا.

فوقف ميشكا، ومد رقبته مستفسرًا نحو يد سيومكا المرفوعة.

قال مندهشًا:

– «لطشت» المشابك؟

– ها هي ذي. إنها من الفضة! وحتى من لا يريدها، يدفع روبلًا ثمنًا لها.

– أي شخص غريب! متى تمكنت من ذلك؟ أولى بك إخفاؤها عن الأعين المؤذية.

– سأفعل.

وسرنا في الشارع ساكتين.

وتمتم ميشكا لنفسه:

– عملية خطف. لقد ذهب وانتزعها من الكتاب! ولكن الكتاب جيد... لست أشك في أن العجوز ترسل الشتائم في إثرنا الآن جزافًا.

فقال سيومكا عابثًا:

- يا لها من فكرة! أتظن أنها ستدعونا إليها وتربت ظهورنا.

- كم تريد ثمنًا لها!

- تسع قطع من ذات العشر كوبكات... وهذا أقل ثمن، فلن أتنازل عن كوبك واحد. لقد كلفتني كثيرًا. انظر.. لقد كسرت ظفري.

فقال ميشكا بحياء:

- بعها لي.

- أبيعها لك؟ أتريد أن تعمل منها أزرارًا؟ لتشترها إذا أردت، فهي ستجعل من أسمالك شيئًا يجتذب الأنظار.

فقال ميشكا بلهجة خفيضة مسترجية:

- لا، بشرفي، بعها لي!

- حسنًا، لتشترها. كم ستدفع؟

- خذ... كم نصيبي من ذلك العمل؟

- روبلان، وعشرون كوبكا.

- وكم تريد ثمنًا للمشابك؟

- روبلان.

- اخفض قليلًا، إكرامًا لصداقتنا.

- أيها الأحمق الصلد الرأس! ماذا يعنيك من هذه المشابك؟

- لا شيء، لكن بعها لي.

وأخيرًا تمت الصفقة بينهما، وآلت المشابك إلى ميشكا بتسعين كوبكا.

ووقف ميشكا وشرع يقلبها بين يديه، حانيًا رأسه الأشعث، شادًّا حاجبيه، متفحصًا المشبكين الفضيين.

فنصحه سيومكا قائلًا:

- علقها في أنفك.

فأجابه ميشكا جادًّا في إجابته:

- لماذا؟ لا، سأعيدها إلى العجوز ثانية، سأقول لها «هاك يا جدتي هذين المشبكين، لقد حملناها معنا خطأ، فضعيهما في مكانهما من ذلك الكتاب. ما رأيك في هذا؟

فشهق سيومكا مندهشًا:

- أتنوي حقًّا تنفيذ ما تقول، يا شيطان؟

- ولم لا؟ فمثل هذا الكتاب يجب أن يظل كاملًا. وليس من العدل أن ننزع منه شيئًا. كما أن ضياع المشبكين سيسبب حزنًا عميقًا للسيدة العجوز، فتمرض... وقد تموت سريعًا.. فلا جناح عليَّ... انتظروا، يا زملائي دقيقة، فسوف أعود سريعًا.

وقبل أن نستطيع منعه، اندفع يجري، واختفى.

فصاح سيومكا غاضبًا، بعد الحادثة وما قد تجره من نتائج:

- يا له من مغفل حمار! إنه شخص سافل!

واندفع في السباب، ثم شرع يمشي قائلًا:

– هيا بنا، أسرع، فسوف نقع في مشكلة خطيرة... لعله جالس هناك الآن، ويداه مقيدتان خلف ظهره، بينما الحيزبون تستدعي البوليس... ذلك ما تؤدي إليه مصاحبة إنسان كريه مثله. لماذا يزج بنا في السجن لأجل شيء كهذا! تصور مدى وغادته! أي حيوان قذر يتصرف هكذا مع زميله! يا إلهي الطيب! كم فسد الناس هذه الأيام! هيا بنا، أيها الشيطان، ماذا بك؟ أتنتظره؟ حسنًا، لتنتظر، ولتذهب إلى الشيطان.. كلكم أوغاد! امش عليك اللعنة! لن تأتي معي؟ حسنًا، إذن...

وبعد أن استنزل عليَّ عدة لعنات، لكمني غاضبًا بين أضلاعي، وانصرف مسرعًا.

* * *

كنت أريد أن أعرف ما يجري بين ميشكا وصاحبة العمل، فسرت الهوينا نحو منزلها، ولم يكن يخطر ببالي أني سأصادف خطرًا أو كدرًا.

ولم أكن مخطئًا.

فما كدت أقترب من المنزل، حتى نظرت من فتحة في السور وسمعت الآتي:

كانت العجوز جالسة على درجات السلم، وبيدها مشابك إنجيلها، وتنظر إلى ميشكا من خلال عويناتها نظرة ثابتة حادة. وكان ميشكا واقفًا وظهره إلى ناحيتي.

ورغم الإشعاع القاسي البارد في عينيها الحادتين، كان وجهها ينم عن العطف، وكان من الواضح أنها تحاول إخفاء ابتسامة عطوف، ابتسامة عفو وغفران.

وكانت تنعكس على الجدار خلفها ثلاثة رؤوس، اثنان منها لسيدتين إحداهما وردية الوجه، تضع منديلًا متعدد الألوان، والأخرى عارية الرأس، وفوق كتفيها يبدو وجه رجل، بشكل الإسفين، أشيب الفودين. وكان لا يفتأ يزوي عينيه بطريقة غريبة، كأنه يقول لميشكا:

- أسرع يا أخي، اهرب!

وكان ميشكا يتلعثم ويرتجف وهو يقول للسيدة:

- إن هذا الكتاب يقول إننا وحوش، وكلاب. ولقد قلت في نفسي: صدقت يا إلهي، فنحن قوم خطاة آثمون... ضائعون! ثم قلت في نفسي ثانية. إن سيدتي عجوز متقدمة في السن، وقد يكون هذا الكتاب عزاءها الوحيد... وكم سنحصل من هذين المشبكين؟ ولكنهما إذا كانا بالكتاب، زادت قيمتهما وعظم نفعهما. هكذا قدرت ودبرت، وقلت في نفسي: سأذهب كي أرد لسيدتي العجوز التقية مشبكيها... وأبرئ ذمتي وأرضي الله، الذي أعطانا خبزنا كفافنا. حسنًا، الوداع يا سيدتي، فإني ذاهب.

فأوقفته السيدة العجوز قائلة:

- انتظر! هل فهمت ما قرأته البارحة؟

– أنا؟ كيف أمكنني أن أفهم وأدرك مغزاه، لا شك أني سمعته، ولكن كيف، وفي أية حال؟ هل لنا آذان لنسمع كلمات الله؟ إننا عاجزون عن فهمها يا سيدتي.

فصاحت به السيدة العجوز:

– «كده» لا، انتظر دقيقة.

فتنهد ميشكا، مستاء، تنهيدة سمعت في أرجاء الفناء ونقل قدميه كما يفعل الدب.

وكان الواضح أن هذا «الشرح» قد أتعبه كثيرًا.

– وهل تريدني أن أقرأ لك شيئًا؟

– زملائي ينتظرونني يا مدام.

– دعك منهم. أنت شخص طيب. فلا تخالطهم بعد اليوم.

فوافقها ميشكا في صوت خفيض:

– حاضر.

– ستتخلى عنهم! أليس كذلك؟

– سأتخلى عنهم.

– يا لك من شخص حساس، أي طفل أنت! هلا نظرت إلى لحيتك، فإنها تكاد تصل إلى منطقتك! هل أنت متزوج؟

– إني أرمل، فقد ماتت زوجتي.

- ولماذا تشرب الخمر؟ ألست سكيرًا؟

- أنا. أنا أشرب.

- لماذا؟

فقال ميشكا متضايقًا:

- لماذا أشرب؟ بسبب بلاهتي وغفلتي. أنا أبله، ولذا أشرب الخمر. فالرجل العاقل لا يجر نفسه إلى حتفه بيده.

- لقد نطقت الصواب. حسنًا إذن، يجب أن تتبصر، وتقوي عزيمتك... اذهب إلى الكنيسة.. استمع إلى كلمة الله، ففي كلمة الله الهداية كلها.

فزمجر ميشكا قائلًا:

- أجل، طبعًا.

- وسوف أقرأ لك بعض الآيات، هل تحب أن تستمع؟

- أرجوك يا مدام!

وسارعت العجوز فأخرجت الإنجيل من مكان ما خلفها، وقلبت صفحاته ورن في الفناء صوتها الجاف يقول:

«لن تنال السماح. أيها الإنسان، طالما أنت تدين الآخرين؛ لأنك حين تدين الآخرين تدين نفسك؛ لأنك أيها المدين ترتكب نفس الشرور»

فهز ميشكا رأسه وخمش ساعده الأيسر.

«وهل تظن أيها الإنسان الذي يدين الآخرين وتفعل فعالهم، إنك ستهرب من عقاب الله»

فقال ميشكا والدموع تهشم مقاله:

– يا مدام، دعيني أذهب لحال سبيلي أجارك الله وأبقاك... سآتي مرة أخرى لأستمع. ولكن الجوع يفري معدتي الآن. فنحن لم نتبلغ بشيء منذ ليلة أمس.

فأقفلت العجوز الكتاب غاضبة حانقة.

ورن صوتها حادًّا خشنًا في الفناء:

– اغرب عن وجهي! اذهب.

فقال ميشكا:

– أشكرك من كل قلبي يا سيدتي.

واندفع يجري إلى البوابة، فصاحت العجوز في أعقابه بصوت كالفحيح:

– نفوس خاطئة مصيرها جهنم، وقلوبهم لا تفترق عن قلوب الحيوانات المفترسة.

* * *

ولم تمض ساعة حتى كنا جالسين ثلاثتنا في حانة نحتسي الشاي

ونأكل الخبز الأبيض. وقال ميشكا وهو يبتسم نحوي ابتسامة ودودة بعينيه الوديعتين:

– كانت كأنها تدفع في رأسي «مثقابًا» وكنت واقفًا أحدث نفسي: يا إلهي، بحق سمواتك، لماذا حملتني على المجيء هنا ثانية؟ لقد كان الأمر معذبًا، فبدلًا من أن تأخذ المشابك، وتدعني لحال سبيلي، أخذت ترغي وتزبد، يا لغرابة الناس وشذوذهم! تريد أن تسدي لهم المعروف، فيركبون رؤوسهم... قلت لها بسلامة نية: «هاك يا سيدتي مشابكك. وإلى اللقاء». ولكنها قالت: «لا، انتظر. أخبرني لماذا تعيدها إليَّ»، ثم شرعت تعظني. فأصغيت إليها والعرق يغمرني.

وظل محافظًا على تلك الابتسامة اللطيفة الودودة الخاصة به.

فقال له سيومكا باهتمام، وهو مستاء مخمور، مهلهل الملابس:

– أولى بك الموت، أيها الغبي العجوز! فلو واظبت على أعمالك هذه؛ لالتهمتك الحشرات والصراصير.

– حسنًا! دعنا من هذا الكلام! هيا، دعنا نشرب زجاجة حتى الثمالة تذكارًا لهذه الحادثة!

وقد شربنا مسرورين نخب هذه الحادثة الغريبة.

* * *

المحتويات

إهـــداء	٥
مقدمة: جوركي: حياته وفنه	٧
نذير العاصفة	٢١
أسطورة	٢٣
الإنسان	٢٦
غاية الأدب	٣٥
أمام الحياة	٦٠
الكاتب المفتون	٦٤
عشية الميلاد	٧٩
قصة رواية	٩٣
صرخة عذاب	١٢٩
وحشية	١٥٨
حادثة المشابك	١٧٠